

الجزء الأول
تحليل لما فقد

الفصل الأول

المبصر ينتهى

فقمان البصر هو نهاية

ف عندما ينزل العمى بشخص يمضى فى خضم حياته المبصرة فتلك نهاية وموت لهذه الحياة المبصرة . وهذه النهاية يمكن أن تأتى فى سرعة إثر حادثة أو مرض من الأمراض التى تنفجر فجأة ، كما يمكن أن تزحف متناقلة فى ببطء ، وذلك فى الغالب مع الجلو كوما (الماء الأزرق) أو فى التهاب القرنية ، أو كما يحدث كثيراً فى أيماننا ، مع البوال (السكر) .

وهذه النهاية يمكن أن تقع دون مقدمات أو تحذير ، تحجبها أحياناً عن الظهور آمال كاذبة أو وعود زائفة ، كما يمكن أن تزحف فى ببطء مروع ، مصيراً محتوماً . وكيفما تكون الصورة التى تتخذها هذه النهاية ، فإنها نهاية أسلوب بعينه للحياة ، استقرار عميقاً فى حياة الفرد . إنها نهاية طرائق مكتسبة لإتيان الأفعال ، وفقدان لصرح من علاقات قائمة مع الناس ، وصلات وطيدة بالبيئة .

ومن السطحية ، إن لم يكن من السذاجة ، أن ينظر الإنسان إلى العمى وكأنه نازلة تنزل بالعينين فحسب ، أو بالبصر ليس غير . إنه ضربة مدمرة لصورة بالذات ، لهذه الصورة التى أقامها الفرد ، فى عناية فائقة وإن لم تكن شعورية ، خلال حياته كلها ، إنه يكاد يكون ضربة لصميم كيانه .

أف يكون غريباً إذن أن كثرة من الناس التى تعجز عن مواجهة هذه النهاية ، فترجم مشاعرها « أؤثر أن أكون ميتاً على أن أكون أعشى » .

وإنى آمل عبر صفحات هذا الكتاب ، أن أكشف عن أن هذا

الشعور لا يستند في واقع الأمر إلى ما ينشده . وعلى الرغم من أن اجتناباً العمى مأساة ، بآثارها العديدة في الشخص الذي يفقد البصر ، وفي أسرته ، وفي كل دائرة صداقاته وجيرته ، فإن الحياة تنطوي على مأس أكثر من ذلك شناعة . وإن أول ما ينبغي عمله هو أن يسلم الشخص بواقع العمى وأن يقابله وجهاً لوجه .

ولقد قام الدكتور لويس شولدن^(١) Louis Cholden من هيئة القائمين على عيادة ميننجر Menninger Clinic بتحليل لموقف الشخص « حديث العمى » فذهب إلى أنه يشتمل على مرحلة أولى قوامها الصدمة تتبعها مرحلة ثانية من الأسى والحerman (فقدان) والمرحلة الأولى مرحلة تكون فيها قدرة الأعضاء على العمل في حالة تخدير ، بما في ذلك حتى القدرة على الفهم ، أما المرحلة الثانية فمرحلة من الأسى على الحياة التي ولت ، والذات التي فقدت .

ويحذر الدكتور شولدن بشدة الأطباء من الضرر الذي يمكن أن ينال المريض نتيجة لما يعدون به من آمال زائفة . فمن خلال خبرته مع المكفوفين ، استطاع أن يكشف عن أن مأساة العمى حديث العهد ، لا يمكن إلا أن تعمق وتطول عند تشجيع المريض ، على الإفلات من مواجهة الواقع المحتوم . أبان عن أن كل محاولة تريد أن تجنب الشخص الصدمة والأسى ليست غير شفقة زائفة ، فلا بد أن يعيش الشخص الصدمة والأسى قبل أن يصبح التأهيل ممكناً . فمن الناحية العملية يتحتم على كل شخص أن يبلغ القاع قبل أن يبدأ عملية صعود الطريق الطويل .

(١) انظر مقالاته « بعض مشكلات الطب العقل في تأهيل الكفيف » مجلة عيادة ميننجر مجلد ١٨ رقم ٣ مايو ١٩٥٤ . بعض وجهات الطب العقل فيما يتصل بأنباء المريض بالعمى » الأكاديمية الأمريكية لطب العيون والأذن والحنجرة ، ١٩٥٣ ، قسم التعليم ، اضرحة رقم ٢٢١ ، وأبحاثه المجلدة « طبيب عقل يعمل في مجال العمى » نشرته المؤسسة الأمريكية للمكفوفين يونيو ١٩٥٨ .

وعليه ، ففى تناولنا للأعمى حديث العمى ، لا تكون مهمتنا الأولى هى أن نقول له بأن الأمر ليس باليسى ، كما أنها ليست أن نقول له إن الحالة ليست عمى . . وإنما تنحصر المهمة الأولى على الأصح ، فى أن ننقل إليه ما يستشعره فتعترف بأن شخصيته تبعث على الحب وأنها محبوبة بالفعل ، وأنه إذ يعيش مشاعر الأسى لا يعيشها منفرداً ، ورويداً رويداً نستطيع أن نجعله يتبين أن من الممكن أن تكون « الحياة قد تغيرت ، لكنهم لم تذهب عنه » .

غير أن الكلمات التى نقول بها ذلك ينبغى أن تكون بعيدة عن الالتواء الذى يعد تلمساً للإفلات من الواقع ، فلا ينبغى مثلاً أن تصدر الكلمات عن مثل هذا الأسلوب من الفكر الذى يتعجل الإلقاء بوجبة المهدئات من طريقة براى ، أو كلب القيادة أو العصا ، أو الكتاب الناطق ، أو حتى إمكانية العمل المهنى ، فالنهاية التى ينطوى عليها العمى إنما هى انحطام لأسلوب بأكمله من الحياة الثرية ، ومن ثم يتحتم علينا أن نكون على استعداد لأن نقدم مكانه وحدة كلية متكاملة وأسلوباً بأكمله للحياة .

ذلك أن المشكلة « القائمة » هى حياة جديدة أمامه ولكن يقوم التناقض : المبصر قد انتهى ومات ، والأعمى الذى ولد يستطيع مرة أخرى أن يصبح نفس الشخص الذى كانه . غير أن هذا لا يتحقق إلا حين يكون مصراً على أن يعيش المعاناة وآلام موت البصر :

وبمعنى ما ، يمكن القول إننا نموت ميتات كثيرة خلال حياتنا ؛ فالحياة سلسلة من الميتات . وغالباً ما تكون الأزمة الانفعالية ، تعبيراً عن فشل الشخص فى أن يخوض و « يتقبل » هذه الميتات .

وفى كثير من الحالات ، تكون اضطرابات المراحل المختلفة للحياة ، إنما هى اضطرابات ترجع إلى الصراع ما بين الحافز البيولوجى للنمو والحافز

السيكولوجى للتشبث بالحياة التى كانت ، وكانت أكثر أمناً^(١) . وثمة صورة لذلك نجدها فى هذا السقم « سقم المدرسة الجديدة » سيان كانت من مدارس المرحلة الأولى ، أو مدارس التعليم العالى ، وسيان كانت فى معسكر من المعسكرات الصيفية أو فى كلية . وصورة أخرى تبدى فى سقم الحنين إلى الوطن عند الهائمين من قطاع الطرق أو اللصوص . ذلك هو التوقف فى وقفة خارج الباب قبل الدخول إلى موقف جديد .

والوان فقدان التى تفرض على الكفيف لى كثيرة ؛ إنما تتشابه وتتداخل بعضها فى بعض . وكل واحد منها يعد بمفرده شديد القسوة . أما هذه الألوان مجتمعة فإنها تشكل هذه الإعاقة المتعددة الجنبات التى هى العمى . كل فقدان ينطوى على وداع أليم ، على « ميتة » ولكن مع موت المبصر ، سيتحقق مولد الكفيف . . والحياة التى هى حياته يمكن أن تكون هنيئة .

(١) انظر « القدسية هى اكتمال الكلبة » - جوزيف جولدر برونر

Josef Goldbrunner, Pantheon Books, New York, 1955.

الفصل الثانى

فقدانات أساسية بالنسبة للأمن النفسى

١ - فقدان السلامة البدنية

إن أولى الضربات المريعة بين الإعاقات العديدة للعمى ، إنما هى فقدان سلامة البدن ، فقدان اكتماله وتماحه — فالشخص الذى نما وكبر وأقام حياته ككيان بدنى مكتمل ، ليس الآن غير مجرد جزء . إنه قد تحطم ، وتطلق عليه الآن كل النعوت القاسية التى تشير إلى الشخص غير السليم ، « مشوه » . « عاجز » ، « مبتلى » — هذا إلى الكلمة المعبأة بالرعب — كلمة « أعمى » .

إن الرعب الذى يعيشه هذا الشخص يحمل طابع الجثام (الكابوس) ؛ فبفقدان البصر يظهر شيء طالما كان يبعث الرعب فى عمق . إنه الآن يختلف عما كان . وأشنع من ذلك أنه يختلف الآن عن الناس من حوله . إنه أعمى فى عالم الإبصار . هذا الاختلاف البدنى عن الآخرين « الأسوياء » إنما هو شيء يعلو ويزيد على كل مشكلات الحياة التى سيتحتم عليه أن يواجهها . كان أثناء حياته كلها يناضل (بشتى الطرق) كى يكون عضواً ينتهى إلى « صميم » الجماعة ، أو يحظى على الأقل باحترام هذه الجماعة . أما الآن فإنه يجد نفسه طريداً « خارج الجماعة » ولا مفر من ذلك !

ولكن مشاعره لا تكون على أية حال بمثل هذا الوضوح والتحدد ؛ فغالباً ما تتبدى هذه المشاعر فى مخاوف غير محددة الملامح ، من قبيل القلق الذى لا يمكن وصفه ، والانقباض الذى ليس له سند منطقى . وبقدر ما يمضى به تفكيره الشعورى ؛ فإن الأعمى يمكن أن يكون على ثقة من أن العمى لم يجعله مختلفاً بصورة أساسية ، ومن أن العجز البدنى ليس هو أشنع ما يمكن أن

يحدث ، إلى غير ذلك من الأفكار . ولكن مشاعره تفيض من متابعة
اللاشعورية الحبيثة ، رافضة أن تنسحب أمام منطق الشعور .

وضمن هذا النسيج من مشاعر الشخص حديث العمى ، تتداخل كل
المشاعر التي عاشها أيام إبصاره وإزاء العميان .

فلو أنه أيام حياته المبصرة كان ينظر إلى العميان على أنهم جماعة من
الناس الغامضين ، أو كان ينظر إليهم على أنهم يمتلكون قدرات غامضة خارقة
فوق حسية ، أو كان يستشعر في حضرتهم مشاعر مبهمة من عدم الارتياح -
فكيف تكون مشاعره الآن ؟

ولو أنه أيام حياته المبصرة ، قد نظر إلى العميان من خلال نظارة
الأنماط المختلفة : الأعمى المتسول ، الأعمى العبقري ، الأعمى الموسيقي - فما
عساها أن تكون مشاعره الآن ؟

ولو أن جانباً من مشاعره كان يرجع إلى « وجود » بعض العميان ، فكيف
تكون مشاعره الآن إزاء « وجوده » كأعمى ؟

وإذا كان وجود أعمى آخر ، يحمله فيما مضى على أن يستشعر مشاعر
النفور والرتاء أو يثير عنده ارتعاشة الاشتمزاز ، فما مصير كل هذه المشاعر
الآن وقد أصبح هو نفسه أعمى !؟

من الممكن أن تمتلئ نفسه بمشاعر معينة من المرارة والمقت ، لما كانت
عليه معاملاته في الماضي للعميان ، بل ولما كانت عليه عطاياه التي كان يتصدق
بها على المتسولين من العميان ؛ ذلك أنه يدرك الآن طبيعة المشاعر التي كانت
تكن وراء ذلك .

ولأن مشاعره الماضية تجاه العمى ، كانت تنطوى على خوف عميق خسيء
فإنه حتى في هذه الحالة يكون لديه من الأسباب ما هو أدعى إلى أن يثير في
نفسه مشاعر الاضطراب . إن الخوف من العمى هو مظهر هام من مظاهر
غريزة المحافظة على الذات - تشهد بذلك الأفعال المنعكسة التي تحمي

«العينين»، كما تشهد به تلك العبارة القديمة قدم الإنسان : « يحميه كما يحمى إنسان عينيه » ، ولكن هذا الخوف لا يعترف به غالبية الناس وينكرونه إلى حد بعيد ، لأنهم يخجلون منه ، ومن ثم فإنه يكون مدفوناً فى أعماق اللاشعور، ومن هنا فإنه يتسبب فى مشاعر النفور ، وفى جانب كبير مما اعتدنا أن نسميه الرثاء والشفقة .

وإذن فمن الممكن أن يعيش الشخص الأعمى مشاعر الإثم بسبب ما كان عليه اتجاهه فى الماضى لإزاء العميان - رفضه لهم ، وشفقته الواهية عليهم ، التى لم تكن تنطوى على أى عون حقيقى وبسبب النفور الذى كان يحمله على أن يتجاهل مشكلاتهم .

ومشاعر « الاختلاف » والخوف والإثم كلها يمكن أن ترتبط مع جنبات أخرى عديدة للعمى غير هذا الجانب ، ونعنى فقدان السلامة البدنية . ولكن هذه المشاعر ، فى هذا الجانب بالذات ، تلثم معاً منضافة إلى وطأة فقدان « الواقع » .

ومهما يكن من أمر فينبغى أن تنبه إلى أن مشاعر الانقباض والخوف والخزى ومشاعر الاختلاف ، لا ترتبط بشكل محدد بفقدان واحد بعينه . كما أن هذه المشاعر لا تتحقق تماماً بنفس الطريقة أو نفس الشكل عند جميع الأفراد الذين يفقدون بصرهم .

كل كائن بشرى هو كائن فريد ، فكل واحد له صورة عن ذاته ، تقارب الحقيقة فى بعض جوانبها وتعرض لتشويه شديد فى جوانب أخرى - تلك صورته الخاصة عن « ما أنا عليه فى الواقع » . وجانب من « صورة الذات » هذه ، هو ما يعرف باسم « صورة البدن » .

وفقدان السلامة البدنية - ونعنى هنا موت البصر - يمكن أن يكون بمثابة ضربة مدمرة « لصورة البدن » هذه .

فالشخص الراشد قد قضى سنوات عديدة في إقامة نوع من الاتزان
أتاح له أن يتعايش مع صورة بدنه ، وأن يقبلها ، وأن يعتز بها . أما الآن
فيتحتم عليه أن يضطلع بمراجعة جذرية لهذه الصورة . فبدنه أعمى ، وبدن
مشوه — بدن شاذ بلا نافذة . ما الذى يطرأ على اتزانه وعلى كل أسلوبه
في إتيان الأفعال ؟

وحضارتنا تزيد من شناعة الموقف بالنسبة إلى الأعمى حديث العمى ،
إذ تولى اهتماماً خاصاً للكمال البدنى . والهيمنة الروحية في الديانات قديماً إنما
كان من شأنها أن تجعل الكمال البدنى في منزلة لا تتسم بالأهمية الحيوية .
ولقد كان في انتشار الديانات ما أتاح للهيمنة الروحية أن تجد طريقها إلى
قطاع كبير من العالم ، ومن ثم فقد عملت — بنفس القدر — على التقليل من
هيمنة الخصائص البدنية ، وبالتالي عملت على التقليل من وطأة فقدان البدنى .
ولكن ثمة عاملين في أيامنا قد عملا على الزيادة من أهمية الخصائص
البدنية ، ومن ثم فقد عملا على الزيادة من ثقل الصدمة المصاحبة لفقدان البدنى .
أما العامل الأول فهو تقليل من الدور الذى تلعبه في ثقافتنا فلسفة
الديانات . فن الفلسفة المادية التى احتلت مكانها في ثقافتنا ، برزت بصورة
طبيعية أهمية البيئة البشرية . بمعنى الأشياء التى تحيط بنا خلال فترة الحياة
البشرية : الصحة البدنية ، والكمال البدنى ، انعدام الألم ، متانة البدن ،
ووسائل الراحة ، إلى غير ذلك .

أما العامل الثانى فهو فن الإعلان ، بتحليله الدقيق للرغبات البشرية
بغية استغلالها وتعبئته لحشد من الوسائل تثير في الناس مختلف ضروب
القلق الكامنة حول أنفسهم ، وخصائصهم البدنية ، ومدى تقبل المجتمع لهم .
والشخص حديث العمى في أيامنا قد نشأ وكبر في هذا المناخ ؛ تنفسه
من خلال المناقشات التى تدور في بيته ، ومن خلال قلق الوالدين والمدرسين
على صحته البدنية ومظهره البدنى .

كان ذلك قبل الدراسة جانباً من التدريبات الرياضية التنشيطية ، وكان بعد الدراسة جانباً من الحلقات الإعلانية عن القيمة الغذائية لمنتجات الغلال : سمع ذلك فى آلاف الشعارات وقرأه فى ملايين الإعلانات فى المجلات والكتب . فالعصر الذى نشأ فيه قد رباه على أهمية الكمال البدنى . وكائناتنا ما كان فى الماضى كماله أو عدم كماله البدنى ، فبدنه الآن أعمى . وثمة عامل آخر عظيم الأهمية فيما يتعلق بفقدان السلامة البدنية ، ونعنى ما يمكن أن يستشعره الأعمى حديث العمى من مشاعر القلق وانعدام الأمن حيال رجولته . فلو كان ذلك كذلك لكان الأمر « موة » أخرى .

ثمة شىء من المرأة عند أقوى الرجال وأنقاهم رجولة ، وثمة شىء من الرجل عند خيرة النساء وأجملهن . ولكن الطفل لا يعرف ذلك ! وعجز الطفل عن معرفة ذلك يتسبب فى القلق عند كثرة من الصبية الذين يجدون لديهم بعض الخصائص « الأنثوية » ، وعند كثرة من البنات اللاتى يجدن لديهن بعض الخصائص « الرجولية » .

فإذا كان الأعمى حديث العمى واحداً من هذه الفئة (حتى حين يكون هذا الشخص أكثر الرجال رجولة) فمن الممكن أن يتعرض لاضطراب واقعى فى هذا المجال .

ذلك أن علماء التحليل النفسى ، علماء علم نفس الأعماق يقررون (وسيان قبلنا هذه النظرية أو رفضناها فليس فى ذلك ما ينال من أهمية فقدان السلامة البدنية) أن أى فقدان لجزء من أجزاء البدن يعيشه الشخص فى مستوى اللاشعور على أنه ضربة تنال من التمايز ما بين الجنسين . ويشير هؤلاء العلماء إلى أن العين ، لأسباب خاصة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأكثر مما يرتبط أى عضو من أعضاء الحس الأخرى بهذه المشاعر المتصلة بالرجولة والأنوثة . وبناء عليه فققدان عين أو فقدان إبصارها إنما يعدّ على نحو ما ضربة تنال من التمايز الذى يجعلنا نساء أو رجالاً — وبالتالي فإنه يعد ضربة قاصمة لمشاعر الأمن المتعلقة بصميم كياننا .

وهذا العمى الحديد المبتدئ ، وهذا التغير البازغ ، يمكن أن يعيشه في نطاق مشاعره حتى على أنه إحصاء . ومن المحتمل أن تتيح هذه النظرية فهما أوضح لهذه المشاعر من الاضطراب المبهم التي يثيرها العمى عند غالبية الناس ، ولهذه المخاوف التي نستشعرها عندما نربط العمى بأنفسنا .

وثمة أمران آخران يقدمهما على نفس الأعماق يمكننا من أن نتبين الأهمية لمحورية لهذا الفصل ؛ فعلماء التحليل النفسي يقررون أنه في مستوى اللاشعور يكون فقدان العين (وإلى حد ما فقدان إبصار هذه العين) مكافئاً للموت نفسه . وإنه في كثير من الحالات تكون أحلام الجثام « الكابوس » التي تدور حول العمى إنما هي في الحقيقة أحلام تتعلق بالمخاوف من الموت ، وهناك فيما يبدو صعوبة خاصة بالنسبة للأشخاص الذين نشأوا في أحضان اللغة الإنجليزية . فعند هؤلاء الأفراد غالباً ما يستغل اللاشعور التماثل الصوتي بين الكلمة التي تعني « العين » وتلك التي تعني « أنا » ، ومن ثم فإن اللاشعور غالباً ما يجعل من الهجمة على « العين » هجمة على « الأنا » ؛ وعليه فإنه في نطاق المشاعر يمكن فقدان السلامة البدنية أن يكون فقداناً وموتاً للأنا ؛ للذات .

وأخيراً فإنه من المهم أن ننبه إلى أن مفاهيم هذا فقدان بسلامة البدن قلما تبدى للأعمى ، إن هي تبدت على الإطلاق في وضوحها المكتمل . فلو تبدت هذه المفاهيم فسيكون عندئذ من الأسير بكثير تناولها ، وسيكون في وسع الأعمى ، على الأغلب ، أن يهيمن عليها ويلفظها . ولكن بدلا من ذلك فإنها غالباً ما تبدى في أشكال مختلفة من المخاوف المبهمة والأعراض التي لا تكشف عن أى ارتباط ظاهر بالمشاعر الحيثية . وما لم يتم عمل شيء لإزاء هذه المشاعر الحيثية فإن مختلف أشكال الأعراض البدنية والحلقية والاجتماعية يمكن أن تتشكل في صورة نمط من أنماط عدم التكيف أو التكيف الزائف .

٣ - فقدان الثقة بالحواس الباقية

من المحتمل أن يكون فقدان الثقة فى الحواس الباقية ، بأكثر مما عليه الحال بالنسبة لأى فقدان من الفقدانات الأخرى التى نعددها ، هو فقدان الذى لا يتصور الناس قط وجوده . فعلى الضد من ذلك ، يؤمن الناس بأنه مع حلول العمى تبرز ظاهرة تعرف فى العادة « بالتعويض » وتبدو الظاهرة للبعض على أنها ظاهرة طبيعية ، فى حين تبدو للبعض الآخر على أنها ظاهرة خارقة « إلهية » .

وقلما نجد صورة تفصيلية عن الميكانيزم الدقيق لهذه الظاهرة ، ولكن يفترض فى العادة أن هذه الظاهرة تتمخض عن زيادة فى حدة الحواس الباقية على نحو لا يتاح قط للمبصرين . ومن هنا نسمع حديثاً عن « السمع المرهف العجيب » عند العميان ، وعن « حاستهم اللمسية الخارقة » وعن حاستهم فى التذوق والشم .

وإذا كان لنا أن نفهم العمى وآثاره فى الكائنات البشرية ، فن المهم أن نعجل بتخليص أنفسنا من هذا التصور ، فى حين نقر فى الوقت نفسه بأن زيادة فى فاعلية عضو الحس تتحقق عند بعض العميان وتبين علة ذلك . فالحواس عند المكفوفين ليست متفوقة فى الحدة عن نظائرها عند المبصرين فحسب ، وإنما هى فى بعض الحالات تقل فى حدتها عن نظائرها عند المبصرين .

ولقد أجريت اختبارات كثيرة على اللمس لحاسة اللمس عند المكفوفين والمبصرين كشفت عن أن اللمس عند المكفوفين لايزيد فى حدته عنه عند المبصرين . وأكثر من ذلك إيهامنا بأن كثرة من حالات العمى تنتج من « إصابة الشبكية » فى مرض البوال « السكر » وعند أصحاب هذه الحالات تنعدم الحساسية فى بعض المناطق اللمسية ، مع تطور مرض البوال نفسه ، وكنتيجة لذلك يمكن للأعمى المصاب بالبوال (السكر) أن يكون فى حاسته

اللمسية أفقر من الكثيرين من مجموعة السكان في نفس عمره الزمني .

والاختبارات السمعية^(١) التي أجريت على جماعات المكفوفين والمبصرين تكشف عن أن العميان يتعرضون كالمبصرين لنفس فقدان في المناطق السمعية . ولكن عدداً قليلاً بعينه من أسباب العمى ينال أيضاً بتأثير السمع وذلك إلى الحد الذي يكون فيه الشخص الأعمى ثقيل السمع ، إن لم يكن أصم في الوقت نفسه وتنتمي إلى هذه الفئة : بعض حالات الإصابة السحائية ، كما تنتمي إليها بالطبع بعض من فصائل التهاب الشبكية المتلونة . وأكثر من هذا في أيامنا ، أننا إذ نجد أرجحية العمى في جماعات الشيخوخة ، نجد نفس حالات فقدان السمع بين العميان المنتمين إلى هذه الفئة من العمر بقدر ما نجدها بين المبصرين المنتمين إلى نفس جماعة العمر (وكنيجة لذلك تكون حالات فقدان السمع في الجماعة الكلية للعميان من مختلف الأعمار أكثر بكثير منها في الجماعة الكلية للمبصرين من مختلف الأعمار) .

وليس هناك من سبب يحمل على الاعتقاد بأن اختبارات تجرى على حاستي الشم والتذوق يمكن أن تتمخض عن شيء جديد . فالواقع هو أن عدداً من الأشخاص الذين يفقدون إبصارهم لأسباب عصبية معينة أو بسبب إصابة معينة إنما يفقدون تماماً حاسة التذوق أو الشم . ويمكن القول بصورة عامة إن حاستي الشم والتذوق عند الأعمى ليست أكثر حدة منهما عند المبصر . وأكثر من هذا أن استخدام أشخاص معصوبي العينين كمجاعات ضابطة لمقارنتهم بالعميان في بعض التجارب كهذه التي قام بها علماء النفس س . أ . سيشر C. A. Seacher و كارل م . دالينباخ Karl M. Dalenbach وفيليب فوركيل Philip Wuorchel تشير فيما يبدو إلى أن بعض الأشخاص المبصرين يكشفون عن قدرة أفضل من نظرائهم العميان سيان من حيث التصرف باللمس ومن حيث مصدر الصوت .

(١) انظر « فحوص حدة السمع ودهاليز الأذن في التهاب الشبكية المتلون » ج . لاندאו

والتمييز ما بين حدة عضو الحس وبين فعاليته إنما يعد تمييزاً هاماً هنا ، وذلك من زاوية الفرد الأعلى ومن زاوية حقل تأهيل المكفوفين .

ففى واقع الأمر يبدو أن كثرة من العميان تسمع ما لا نسمعه ، وتشم ما لا نشمه ، وتذوق ما لا نتذوقه ، وتعرف عن طريق حاسة اللمس أموراً يستحيل علينا تمييزها ، ولكن ليس فى هذا ما يقوم دليلاً على أن لديهم حواس « أكثر حدة » ، لا ولا على وجود « تعويض » طبيعى أو خارق أو سحرى .

إن ازدياد فعالية الحواس ، حيثما تتحقق ، إنما يرجع إلى سببين ، فهو إلى حد ما ينتج عن التركيز (وذلك هو نفس السبب الذى يدفع بعض الناس إلى إنغماس أعينهم حتى يعمى سمعهم للسمفونية) ، وهو السبب فى أن الغالبية منا تسمع « أصواتاً » أكثر بعد ما نطفيء الأنوار فى الليل ، كما يرجع هذا الازدياد فى الفعالية أيضاً إلى التدريب (وفى الأعم الأغلب يقتصر الأمر على تدريب ذاتى) وعلى الخبرة (من قبيل هذه المقدرة التى تمكن بعض الناس من أن يحدد جودة النبيذ عن طريق مذاقه ونكهته ، أو يحدد نوع النسيج عن طريق ملمسه) .

والجيوش الحديثة تعنى بتدريب مختصين فى قراءة الصور الجوية وبفضل التدريب والخبرة يتمكنون من رؤية أشياء فى هذه الصور لا تستطيع أن تراها — إمدادات ، ومخازن ومنشآت تشير إلى تحرك قوات . ليس هناك حدة خاصة لحاسة البصر عندهم ، وإنما هى ببساطة مسألة تدريب الملاحظة . ونحن لانسبغ على مثل هؤلاء الإخصائيين قدرات سحرية خارقة .

وبنفس الطريقة ، يتعلم كثير من العميان خلال فترة من الزمن تأويل الصوت والرائحة والمذاق واللمس بأفضل مما يستطيعه الرجل المتوسط . ولكن هذا لا يمثل على أى حال ظاهرة عامة بين العميان . وما دمنا نعتقد « التعويض » ونتشبث به ، فإننا إنما نعزل بذلك العميان داخل نطاق سحرى

فوق حسي . وما دام العمل من أجل العميان يفتح لتأثيرات هذا المفهوم الخاطيء فإننا نهمل تطوير هذا المجال الهام من « تدريب » الحواس عند العميان تاركين أمره « للعفوية ، والمصادفة » .

فليس هناك من غرابة أن يستشعر عامة الناس ، وقد تربت على المفاهيم الزائفة « للتعويض » مشاعر العجب عندما نخبرهم أن العمى الحديث العهد يمكن أن يتسبب في فقدان الثقة بالحواس الباقية ، وفقدان الثقة هذا ليس نتيجة للتدمير الفعلي لعضو الحس أو وظيفة عضو الحس مما يرجع - كما رأينا - إلى بعض أمراض أو إصابات معينة . وإنما هو حالة ، توجد بدرجة تقل أو تزيد عند كثيرين من العميان حديثي العمى (وتستمر هذه الحالة فترة تطول أو تقصر) ، حالة من شأنها أن يصعب على الأعمى أو يستحيل عليه أن يثق بحواسه الباقية . وهذا فقدان لا يتحقق بكل وطأته عند جميع العميان ، فبالنسبة إلى البعض يستمر شعور فقدان فترة وجيزة ولكن بالقدر الذي يهيمن به شعور فقدان هذا ، يكون الأعمى المحروم حديثاً من البصر محروماً أيضاً من استخدام حواسه الباقية .

وكيفما نفهم علة هذا الشعور بالفقدان ، يتحتم علينا أن نتبين مدى اعتمادنا على البصر من حيث هو رقيب وضابط للمعلومات الصادرة عن الحواس الأخرى . وصحيح أننا نستخدم إلى حد ما كل حاسة من حواسنا لنضيف إلى معلومات الحواس الأخرى ونضطلع بضبطها ونتبين صحتها ، ولكننا نستعين في ذلك بالبصر أكثر مما نستعين بأية حاسة أخرى .

وعند ما يصبح الإبصار أمراً مستحيلاً فعندئذ تصبح الثقة مسألة عسيرة ، إن لم تكن مستحيلة ، عند كثير من الناس ؛ فهم يميلون إلى التشكك في المعلومات التي تزودهم بها الحواس الأخرى فلا يثقون في صحتها . ولا ينبغي أن نفهم ذلك على أنه شك عقلي ، وإنما هو بالحرى « شك حسي » ربما يرجع إلى بعض الاضطرابات التي ترتبط بنمط الحاسة المركزية ، وهو نمط

يستمر حتى يقوم انتظام حسى جديد يأخذ مكانه . وهذا الاضطراب تعظم أبعاده عند ما يفلت من سيطرة العقل . وتنسب مشاعر عدم الأمن الناجمة عن ذلك فى تفجر الملح .

ولننظر فى طريقة استخدامنا للبصر كيف تثبت به من المعاومات التى تزودنا بها بعض الحواس الأخرى .

ماء السمع : تزودنا بكثير من المعلومات عن العالم من حولنا ، ولكننا المرة بعد المرة نتثبت من هذه المعلومات بفضل الرقيب - البصر . فالتفاقة الرأس فى سرعة والحركة الآلية التى تدير أعيننا إلى مصدر الصوت والتساؤل المصاحب « ما هذا ؟ » - كلها إنما تشير إلى آلية الميل إلى التثبت . فالأصوات المألوفة التى يسهل التحقق من هويتها تدعونا فى سرعة إلى أن ننظر ونتثبت . . هل هناك جديد يجعلها مهمة ؟

ماء اللمس : حين نعرف أن فى جيبنا أو حافظة نقودنا قطعة من النقود الفضية فئة العشرة القروش ، فإننا لانجد صعوبة فى أن نتبينها باللمس . ومع ذلك فإننا لانكاد نخرجها حتى ننظر إليها بشكل آلى ، بشكل لاشعورى (بل بشكل قهرى فى الغالب) ، وذلك فقط حتى « نتثبت » : ومثل آخر ، فإننا نلمس بحذر حافة الإناء الذى يغلى ونسحب يدنا فى سرعة فهو ساخن ، ثم نرفع الغطاء حتى نرى الفقاقيع المألوفة التى تتيح لنا أن « نتثبت » .

ماء الشم : « نغمض عينيك وشم هذا » هكذا يطلب إلينا أحد الناس . فنقول : « أزهار بنفسج » . إننا واثقون من ذلك ، نفتح أعيننا « ونتثبت » من أنها أزهار بنفسج .

ماء التذوق : ليس بإمكان كل مدخن السجائر أن يحسنوا الإجابة فى اختبار الأعين المعصوبة .

ومع ذلك فإننا نستطيع بكل تأكيد أن نتبين الدخان بالمذاق ، فلماذا إذن

بعد السحب المتصل من السيجارة ، هذا الفعل المنعكس الآلى الذى يجعلنا ننظر . . هل السيجارة مشتعلة ؟ الإجابة ببساطة هى أننا « نتثبت » بالبصر من المعلومات الموجبة أو السالبة التى تزودنا بها حاسة الذوق . وبالإضافة إلى هذه الحواس المعروفة « بالحواس الرئيسية » ثمة قائمة طويلة من الحواس الأخرى يكثر النقاش حولها فى أيامنا هذه ، واثنان من بين هذه الحواس تستحقان فيما يبدو اهتماماً خاصاً :

ماسة الاتزان : حين تكون حساسيتنا الخاصة بدلهيز الأذن طبيعية فإن اتزاننا لا يكون فى حاجة إلى أن يعتمد على البصر . ومع ذلك فإن غالبية الناس حين يجدون أنفسهم فى غرفة مظلمة تماماً يمكن أن ينصرف ذهنهم فجأة إلى تخيل أن قاماتهم ليست مشرعة كالعادة ، وعندئذ يكون فى إمكان النور وحده أن يجيب ، وإذا ما أغمضنا أعيننا فترة من الوقت ، فن الممكن أن نبدأ فى فقدان الاتزان ، وكما نعيد هذا الاتزان من جديد يتحتم علينا أن نفتح أعيننا ونتوجه مستخدمين البصر . فهذه الحاسة هى الأخرى « نتثبت » منها بفضل الرقيب : البصر .

وماسة الذاكرة الحركية (أو « الذاكرة العضلية ») هى أيضاً جد هامة هنا . فباستخدام هذه الذاكرة بدلا من استخدام البصر يستطيع أى شخص تقريباً أن يصعد أو يهبط الدرج فى منزله دون ما حاجة إلى أن ينظر إلى الدرجة العليا أو الدرجة السفلى .

ومع ذلك أطفى الأنوار وضعه فى أعلى السلم أو فى أسفله فإنه يشعر بالضياح ، فالذاكرة الحركية قد بطلت تماماً ، فما إن يذهب الإبصار حتى تتلاشى ثقتنا بالذاكرة الحركية .

ومن هذه الأمثلة ومثيلاتها يسهل أن نتبين أن شيئاً لا بد وأن يطرأ على الثقة بالحواس الباقية عند ما تضيع حاسة البصر .

أما ما يحدث على وجه الدقة فذلك يختلف من شخص إلى شخص ،
ويختلف اختلافاً كبيراً تبعاً للصورة التى يضع بها البصر . فالشخص الذى
يفقد البصر فى بطاء خلال فترة زمنية طويلة يمكنه فى الواقع أن يجتاز فترة
طويلة من إعادة تنظيم أسلوبه فى التثبت من معلومات الحواس . ومهما يكن
من أمر ، فمن الممكن خلال هذه الفترة ، أن يعانى بين الحين والحين من
مشكلات هذا الفقدان للثقة فى الحواس الأخرى . ويكون من العسير عليه
أن يتعرف الطبيعة الحقة لهذه المشكلات بحيث يتعرض للتشكك بشكل خطير
فى نفسه وفى سلامته العقلية ، اللهم إلا أن يتبين السبب فى وضوح .

أما فى حالة العمى المفاجئ فإن هذا الفقدان للثقة فى الحواس الباقية يمكن
أن يكون عاملاً من العوامل الهامة فى مرحلة الصدمة ، كما يمكن أن يسهم
خلال فترة زمنية طويلة فى دعم مشاعر عدم الأمن التى يستشعرها الشخص
إزاء نفسه . وبالنسبة إلى البعض تكون التجربة جد صادمة ، بل وإلى الحد
الذى يمكن أن تبلغ فيه بالشخص إلى الهلوسة مما يسهل فهمه عند دراستنا
للشكل التالى من أشكال الفقدان . وفى جميع الحالات يمكن أن يكون تناقض
الثقة فى المعلومات التى تزوده بها الحواس الباقية عاملاً من العوامل الخطيرة .
ففى ذلك ما يجسب الأعمى حديث العمى فى مصدرين لاغير للمعلومات
الجديرة بالثقة : فإن ما تعلمه قبل فقدان البصر وما يقوله الناس له ينحسب
فى الثقة بالذاكرة والثقة فى الناس . وها هنا يبرز مجال هام من التبعية
(وفى صميم هذه التبعية يقف الأعمى معزولاً على نحو ما عن الناس الذين
يعتمد عليهم) .

وهذا الفقدان للثقة بالحواس الباقية ، وخاصة أثناء مرحلة الصدمة
للعمى الحديث العهد ، إنما هو عامل مدمر لأنه يترك الشخص بلا معين .
لأنه يجرفه بعيداً أكثر « عن العالم من حوله فيزيد ذلك إمكانية
التأهيل بعداً » .

٣ - فقدان الاتصال الواقعي مع البيئة

إن فقدان الاتصال بالواقع ، فقدان « الاتصال الواقعي » مع العالم المحسوس .
الذى نعيش فيه ، إنما يؤدي في سر إلى معاناة الهلع ، أو يؤدي إلى مزيد
من السبات في « اللاجس » المميز لمرحلة الصدمة . إنه « موة » أمعن
لعالم الأشياء من حولنا .

وبالنسبة إلى الذين يعرفون أن الاتصال بالواقع إنما هو معيار السوية
العقلية ، فإن ذلك يمكن أن يعنى بالنسبة إليهم أن الأعمى يفقد السوية
العقلية ؛ ليس الأمر كذلك . فالإمساك بعالم السوية والحفاظ عليه
أمر أشد عسراً ، والاتصال بالواقع علامة من علامات التمايز الفاصلة ما بين
العصاب (المرض النفسى) والذهان (المرض العقلى) . وفى فقدان الاتصال
بالواقع ثمة رابطة أساسية مع الواقع تنقطع . ومن الممكن أن تتضح دلالة
ذلك بدرجة أعظم لو نظرنا إلى بعض هذه الأسئلة التى يغلب أن يوجهها
الطبيب العقلى إلى شخص يبدو أنه فقد وجهته فى الزمان والمكان « من
أنت ؟ » « من أنا ؟ » « أين أنت ؟ » « من هم هؤلاء الناس من حولك ؟ »
« ماذا تفعل هنا ؟ » « منذ متى أنت هنا ؟ »

وإذا تخطيت السؤال الأول (فى تذكر منك للضربات التى تنال الذات ،
والتي يعانها الأعمى حديث العمى) فسل نفسك عن أكثر الحواس أهمية
بالنسبة إليك فى إجابتك على هذه الأسئلة الأخرى . إن الإجابة الأكيدة
تتطلب - على الأقل فى أربعة أسئلة من الخمسة - أن يعتمد المبصر
المتوسط أعظم الاعتماد على البصر .

وفى التوجه ضمن نطاق البيئة فإن حس التحرك وحساسية الدهليز
يلعبان دورهما . ولكن البصر أكثر من أى شئ هو الذى يحددنى فى
صلاتى بالأشياء من حولى . فالبصر يحددنى فى صلتى بالأشياء عن يمينى
وعن يسارى ، وبالأشياء من فوقى ومن تحتى ، وبالأشياء أمامى وحتى .

خلنى ، فالبصر لا يتبين هوية هذه الأشياء فحسب ، وإنما أيضاً يحددنى فى مكان المركز منها .

السمع معين . ولكن الأصوات أشياء غير مجسدة ، فالأصوات تتغير وتنتقل وتتردد صدى ، إنها تنساب إلى الداخل كلها معاً بلا بوثة . وليس لها هذا التحديد المكافئ الدقيق مثل البصر . والشم والنوق يلعبان دوراً ضئيلاً فى توجيه المبصر ؛ فليس لهما من حيث التحديد المكافئ بروز متميز . فهما ينتشران فيصيران إلى الخلط واللمس أكثر عيانية ، فهو حاسة « الملموس » ، ومع ذلك فمن الممكن أن يفشل . واللمس يربطنا بقطعة صغيرة فحسب من الواقع — قطعة من السهل أن تخطئ فى تحديد هويتها . ومن السهل جداً بالنسبة للأشياء « الملموسة أن تتحرك » ، وبالنسبة لعالم الجوامد كله أن يبدو فى حركة متصلة حتى لو توقفت يدي لحظة عن الإمساك بالواقع .

وإذن فإن البصر بالنسبة للذين شبوا على استخدامه إنما هو الحاسة الكبرى للاتصال بالعالم العياني ، عالم الأشياء كما هى . ذلك أن البصر هو أيضاً فى الوقت نفسه « لمس » . فهو يصل إلى ، ويطوق ، ويمسك ، ويحضن ، ويعانق . فإن البصر يصل إلى جوانب من البيئة لا يستطيع بدنى أن يلمسها ، فالبصر يمد من حاسة اللمس ، إنه يمد منى . وهو إذ يفعل ذلك يضعنى فى مكان محدد ثابت ؛ لأنه يدرك جميع الأشياء فى صلتها بمكانى المركز . إن الحواس الأخرى غالباً ما تكون مائعة غائمة . أما الإبصار فـ « واقعى » ، الإبصار عياني .

وبوسعنا الآن أن نتبين قيمة الإبصار للتوجه ضمن نطاق البيئة^(١) .

(١) إن الأشخاص الذين فقدوا البصر منذ وقت كاف بحيث تحقق لهم شفاء جزئى من هذا الفقدان يمكن أن يستشعروا من جديد مشاعر الملح ، إذ يمتلئون سطح الميزان ولا يجدون شيئاً يمكن به عند ما يزفون أنفسهم ، فقدم ثبات المسطح يقضى على ما قام حديثاً عندهم من اتصال بالواقع عبر اقدامهم ، ومن ثم يبرز القلق بسرعة . وعادة ما يعد هذا التغير للقلق ومعرفة مصدره كافياً لتهدئته .

وثبات التوجه بمعنى اتسامه بالاستقرار وعدم التغير لهُ عامل جد هام بالنسبة لمشاعر الأمن . فلو طرحنا العوامل البدنية جانباً فإن الأمر يمكن أن يكون سبباً رئيسياً في توليد ظاهرة « التوجه الضال » التي نجدها في « ذهان إظلام العدسة الشيخوخى » (يعرف أيضاً « بذهان القناع الأسود »)^(١). ولكن بفضل العمليات الجراحية الحديثة في أيامنا أصبحت هذه الحالة أقل شيوعاً بالقياس إلى ما كانت عليه في العشرات السابقة من السنين ، وعادة ما يمكن شفاؤها بسرعة^(٢) .

فما إن يصدر الطبيب أمره بإزالة الأربطة عن العين حتى يعود الاتصال بالبيئة . ولكن مثل هذا الحل مستحيل في حالة العمى الحديث ، وفي هذا يكمن الطابع المروع لهذا فقدان ، فقدان الاتصال الواقعي مع البيئة ، وهذا الانفصام لعروة أساسية مع عالم الواقع إنما هو ضرب من الموت للأشياء من حولنا - وجانب من أكثر الجوانب ترويعاً بين الجوانب العديدة لصدمة العمى .

(١) انظر الاضطرابات العقلية التي تمقّب جراحة إظلام العدسة « آلان جرينوود »

"Mental Disturbances Following Operation for Cataract," by Alan Greenwood, M. D., Transactions of the Section on Ophthalmology of the American Medical Association, 1928.

« والذهان الذى يمقّب جراحة إظلام العدسة » إيثيل وراسل **Surgery "Psychosis Following Cataract Operations" by Ethel Russell M, D., Annals of**

ومضاعفات جراحة إظلام العدسة كونراد بيرنزودونالد بوجارت

"Complications of Cataract Operations" by Conrad Berens, M.D., and Donald Bogart, M.D. 5 Tr. Sect. Ophth. A.M.A., 1938. pp. 238-283.

(٢) إن جراحة إظلام العدسة للمسنين تعد الآن إجراء روتينياً في . بعض الحالات تحدث مضاعفات ، ولكن الأخصائى في مجال العميان يشدد على ذلك التوصية بإجراء العملية عند ما يرى ذلك طبيب العيون ، وفي مثل هذه الحالة يجب اتباع التوصية . فالجراحة علمية من البساطة ونتائجها من الروعة بحيث تجد الآلاف من أصحاب الثمانين عاماً ينصحون بها في حماسة استناداً إلى تجاربهم .

٤ - فقدان الخلفية البصرية

إن فقدان الذى تناولناه بالدراسة وفرغنا منه الآن إنما كان فقدان شئ ، أما الآن فسنتناول فقدان الخلفية التى يوجد ضمنها هذا الشئ ، وإذا كان فقدان الشئ يبعث الشعور بالارتياح ، ارتياح البصر يفتش عن شئ لم يعد له من وجود هنا ، فإن فقدان الخلفية يبعث الشعور بالخواء ، والعزلة ، وما يمكن تسميته « الصمت البصرى » .

فإننا وكى نفهم هذا فقدان الأخير فإننا فى حاجة إلى أن نتبين عظم الدور الذى يلعبه باستمرار فى حياتنا الخلفية البصرية ، فمن حيث هو قاع ووراء من التغيرات الناعمة أو تبدلات الأشكال الجميلة ، من حيث هى « موكب سيمفونى » من المصاحبات البصرية للأحداث أو لرتابة الحياة اليومية ، إن هذه الخلفية شبيهة بالخلفية السمعية فى حياتنا هذه التى يخلف فقدانها « الأصم » فى رتابة خرساء لا يرى فيها غير أشياء صامتة .

إننا نسير فى الطريق ، ونركب مترو الأنفاق ، ونجلس فى غرفة المعيشة ، ونقف نتحدث فى فندق مزدحم ، من حيث المبدأ لا نرى شيئاً غير هذه الأشياء بعينها التى يتفق أن نركز عليها أبصارنا . ومع ذلك فأعيننا وعقولنا ترى فى المستوى شبه الشعورى ، إنها تلتقط صوراً وتستبعد أخرى ، تلتقط بعضها للذاكرة وبعضها للاحتياج الوشيك ، آخذة فى حسابها عالم الألوان لتبايناته ، عالم الحركة والسكون ، عالم الأضواء والظلال ، عالم الناس والأشياء ، عالم الأشكال والهيئة والنسيج التى تقوم كلها من حولها . نتحدث مع شخص ما ، ونحن إذ نفعل ذلك « نستبعد خارج اهتمامنا » كل الخلفية التى تراه ضمنها ، ومع ذلك فإننا فى أنفسنا إنما نراه « داخل » هذه الخلفية .

وعلى الرغم من أن هذا يتم كفعل منعكس لاشعورى شأنه شأن الانغلاقات الوقائية لحفى العين ، فإن هذا النشاط التصويرى يضطلع بوظيفة حمايتنا من

الأخطار ، وحتى المرور الخاطف لأحد الظلال يمكن أن ينهبنا على عجل ، ويجعلنا فى موقف الاستعداد ضد أى مخاطر وهمية أو واقعية .

وهذا النشاط التصويرى يضطلع أيضاً بهذه الوظيفة التى ذكرناها عند الحديث عن فقدان السابق ، ولكن الوظيفة هنا تتم بصورة أقل شعورية ، من حيث الإبقاء على اتصالنا بالعالم من حولنا .

إن العمل لا ينقطع ولا يتوقف قط ، لا من حيث وضع الآخرين ضمن خلفية معينة فحسب ، وإنما أيضاً من حيث إننا نضع أنفسنا على المسرح ، مضطلعين بذلك « بالتوجه » فى محيطنا العيى ، وإن كنا « لا نعى إطلاقاً » أننا نفعل ذلك ، ولكن لو حدث فى لحظة ما أن بلغ بنا الشرود إلى الحد الذى يصبح فيه اللاوعى مكتملاً حقاً ، فإن « انزلاقنا إلى اللاوعى » « انزلاقنا منه » إنما يكون مصحوباً بهلع واقعى بارز ، مما يدل تماماً على أن التوجه البصرى هو جانب من كياناتنا .

أضف إلى هذا أننا عندما نمارس نشاطنا فى أشياء خارجية ، فإن إدراكنا للخلفية يكون نوعاً من الترويح بالنسبة لنا ، هو فى العادة ترويح لا شعورى .

وعلى سبيل المثال ، كانت هناك فى مكتبى أثناء النهار خلفية بصرية متغيرة . عندما بدأت العمل ، كان الضوء المباشر للشمس يقع فى ناحية من الغرفة بعيداً عن مكتبى . أما الآن فإن أشعة الشمس ترسم خطاً من النور عبر مكتبى ، وخلال فترة النهار أخذت الحرارة المصاعدة من المدفأة التى ورأتى تدفع فى حركة رقيقة إلى أعلى أشعة الشمس الراقدة على أرض الغرفة والمنضدة . وكانت الشجرة تلقى فى الغرفة بظلالها المتحركة التى أخذت تموج فى غير توقف حتى أرغمتها ربح منتظمة ثابتة الاتجاه على أن تسكن حيناً من الوقت . إن الظلال والأضواء فى الغرفة وما بها من أثاث وألوان — كل هذه الأشكال والألوان والظلال قد تألفت فى علاقات جديدة ، فجديدة إلى غير نهاية .

ولست الصيغ وأشكالها ونسيجها تعبيرات جديدة تهمس بها ملاحظها بين حين وآخر ، وتبدت الألوان فى مذاقات لا حصر لتباينها فى تعاقب الحظى . كل ذلك « رأيت » ، ومع ذلك لم أره فى تنبه وقصد .

ذلك هو العالم البصرى المتغير الذى نعيش فيه — تشتت الفكر وتحويل الانتباه والتغير كلها تحميننا من الرتبة ، ومن ثم (فشأنها شأن الترويح) تضطلع بتجديد أنفسنا وطاقتنا ، ليس فحسب بعد الساعات الكادحة والإرهاق ، وإنما أيضا خلالها .

وهذا الإدراك للخلفية البصرية يعيننا أيضا حين نعيش نوعا من لذة الحس بالحركة ، وهنا أيضا لا يتعلق الأمر بحالة من النشاط الواعى تماما ، ليس لذة الحركة العضلية والحركة فى المكان فحسب ، وإنما أيضا لذة الحركة ، ندركها بالبصر ، إذ نراها تبرز على خلفية من اللاحركة .

هناك أيضا هذه الظاهرة الغريبة ، التى أطلق عليها علماء الطبيعة اسم « بارالاكس » (أى تغير مرأى الشيء باختلاف مكان الرأى) ، مما يجعلنا نسبغ الحركة على عالم من الأشياء عديمة الحياة على الأرض ، وبذلك نخيل الجماد حياً . وحين ننظر من داخل قطار يتحرك تبدو الأشياء البعيدة وكأنها تتحرك فى نفس اتجاه القطار ، وتبدو الأشياء القريبة وكأنها تبتعد إلى ما وراءنا ، وفيما بين الأشياء البعيدة والقريبة تضطرب الأشياء الحامدة بآلاف العلاقات المتباينة من السرعة والتدافع . ولكنك لست فى حاجة إلى قطار ، فالظاهرة تحدث فى كل وقت . أمسك شيئاً — سيجارة أو قلم — على مسافة قدم أمام عينيك . والآن انظر إلى الحائط البعيد وحرك رأسك إلى اليمين أولاً ثم إلى اليسار . عندئذ ترى أن الشيء يتحرك بعيداً فى غير اتجاه حركتك ، على حين يتحرك الحائط فى نفس اتجاه حركتك . وهذا يحدث باستمرار دون توقف ما دمت تتحرك ، وينتقل ذلك دواما دون توقف إلى داخلك كجانب من إدراكك للخلفية البصرية .

كل هذه أمور قيمة ندين بها لإدراك الخلفية البصرية . وفى فقدانها ما يخلف الأعمى حديث العمى فى خواء بصرى ، هو خلاء يقف فيه ميتا بالنسبة إلى التغيرات والألوان والأشكال المتحركة والخلفيات البصرية حيث يعيش عالم الناس .

هـ - فقدان امن النور

إن الحديث عن العمى على أنه « فقدان النور » إنما هو كلام غير دقيق وضار بالعميان . ومع ذلك فهناك ما يحتم الاعتقاد أن ثمة فقداناً « لأمن النور » يشكل فى كثير من الحالات جانبا من صدمة العمى . ولكى نتبين قيمة هذا فقدان ، ينبغى أن نفهم أولا هذا الخطأ ؛ خطأ الاعتقاد بأن العمى هو فقدان للنور ، وأن نفهم ما ترتب وما يترتب عليه من إضرار بالعميان .

فعامة الناس تستخدم بطريقة ما (بل وتجد ما يشجعها على ذلك) لفظى النور والظلام لفظين مماثلين للبصر والعمى . فالناس يتحدثون دائماً عن « الحياة المظلمة » للعميان ، ويشيرون إلى النور الذى يدخل حياتهم ، لأنهم يتحدثون عن الأعمى على أنه « يعيش فى الظلام » ، ويطلقون على الهيئات التى تخدم العميان « مؤسسات النور » . ومع ذلك فإن هذه المماثلة يمكن أن تشكل حاجزا منيعا يحول دون فهم العمى ودون تقبل العميان فى مجتمعات المبصرين .

أما أن مثل هذه المماثلة تفرض نفسها على المبصرين فهذا أمر يسهل فهمه ؛ فعندما يغيب النور نعجز عن الإبصار ، فنصبح بمعنى ما عميانا ، هذا النوع من العمى يدخل ضمن تجربتنا الحية ، ومن ثم نقوم بتعميمه فنسحبه على التجربة التى نجعلها ، تجربة العمى الواقعى : إننا عشنا أيضا تجربة مضادة تماما كنا فيها للحظات عميانا بسبب نور زائد جدا . ومع ذلك

فلإننا لم نقم قط فى هذه الحالة بالمماثلة . فإننا لا نتصور العمى قط على أنه نتيجة انغمار بنور زائد — وإنما نتصوره فقط على أنه انعدام للنور .. لماذا ؟ إن النور هو وسيط الإبصار . فليس النور هو الإبصار ، فإذا ما تغيب الوسيط ، أو إذا ما توافر بكية زائدة ، فإننا نعجز عن استخدام هذا الوسيط ، نعجز عن الإبصار . ولكن الوسيط ليس هو الحاسة ، فليس النور هو الإبصار .

ومن وجهة نظر علم البصريات ، يمكن أن تكون المماثلة بين الظلام والعمى ليست جد سيئة مادام من المؤكد أنه يستحيل على الشخص أن يبصر بغير النور . ولكن من وجهة النظر الأشمل فى طب العيون ، ومن وجهة النظر العامة فى علم النفس وعلم الاجتماع أيضا ، فإن هذه المماثلة لا يمكن إلا أن تتمخض عن إضرار خطير بفهم دلالة العمى .

ولننظر أولا العلة فى أن هذه المماثلة « غير دقيقة » إن الغالبية العظمى من « العميان » بحسب تعريف العمى الذى يكاد يكون عاماً عمومية مطلقة فى الولايات المتحدة^(١) إنما ترى النور بوضوح ، بل إن بعضهم يستطيع أن يقرأ عناوين الصحف ، وبعضهم يقتلر حتى على أن يعرف بعينه أشياء بعيدة ، وإذن فإن الغالبية العظمى من عملاء « مؤسسات النور » للعميان ، يبصرون بالفعل ، النور ، وبعضهم يبصر نوراً كثيراً لا يدرى ماذا يفعل به ؛ فهم فى حالة انغمار بنور زائد ، وليست لدينا إحصائيات تمكننا من تحديد الأرقام ، ولكن سوف يدعشنا لو أن أكثر من واحد فى كل ثلاثين من مجموع العميان عندنا كان عماه بحيث لا يبصر أى نور (عشرة آلاف بين ما يزيد على ثلاثمائة ألف) .

(١) تعريفات العمى مختلفة فى العالم ، وأكثر التعريفات شيوعاً فى الولايات المتحدة يمكن صياغته كما يلى : إن الشخص يعد أعمى عند ما تتجاوز الحدة المركزية بـ ٢٠ ٪ فى أحسن عينيه مع استخدام العدسات المصححة ، أو عند ما تزيد الحدة البصرية عنده على بـ ٢٠ ٪ وتكون مصحوبة بتحدد فى مجال الرؤية بحيث يقابل أوسع قطر زاوية لا تزيد على ٢٠ درجة .

وأكثر من هذا فإننا حتى لو أخذنا بالتعريف الشائع والذي يعد أكثر التعريفات ضيقاً ؛ وهو أن العمى شخص « لا يستطيع أن يرى » . فإننا سنجد عدداً كبيراً من العميان بحسب هذا التعريف يقتدر على التمييز ما بين النور والظلام . ومن الواضح أنهم عميان ومع ذلك فهم ليسوا بلا نور . فالشخص الذى لديه إدراك النور ، أو حتى شكل النور ، وبكل تأكيد الشخص الذى يقتدر على التمييز الغائم بين الأشكال المتحركة ، ليس بشخص محروم من « النور » . ومع ذلك فأى واحد منهم هو « أعمى » بأى معنى من المعانى التى يقبلها العقل عن العمى .

هذا إلى أن العميان ممن ليس لديهم إدراك النور ، غالباً ما تكون لديهم كثرة من الرؤية اللونية — لا باستقبال الألوان من خارج العين (مما يعد ممكناً فى بعض حالات « العميان ») وإنما هى ألوان مهزوزة تنتج من تغيرات داخل العين ؛ أو فى الجهاز البصرى . وهذه الظاهرة ليست من الندرة بحيث نعتبرها فحسب حالة استثنائية .

وهكذا فإن كثيرين من العميان ممن لا يقدرّون على استقبال أى نور كائناتاً ما كان عبر جهازهم البصرى (بل وفى الواقع حتى العميان ممن استؤصلت أعينهم) غالباً ما يرون الألوان ، بل ويرون أشكالاً جميلة من الألوان ، فى أوقات كثيرة أثناء صحوهم ، وليس هذا بعرض « هلوسى » وإنما هو شيء جد واقعى هذا الذى يرونه ، وكما نفهم هذه الظاهرة يكفيننا أن نذكر الحقيقة التى مؤداها أن تنبيه العصب البصرى ، بضربة على الرأس مثلاً ، يمكن أن يجعلنا « نرى النجوم » ، وفى بعض حالات العمى يحدث هذا التنبيه بدرجة كافية غالباً بحيث يجعل الأعمى يعيش فى عالم نور وألوان .

وليس هدفنا بكل تأكيد أن نوصى بأن مثل هذه التجارب المعيشة من النور والألوان هى دائماً وباستمرار تجارب سارة ، فهى على العكس من ذلك يمكن أن تكون مبعث اضطراب وخاصة عند الشخص الذى لا يفهمها .

ولكن هذه التجارب على أية حال تزود الكثيرين من العميان بعالم نور وألوان يختلف كل الاختلاف عن التصور الشائع لعالم « بلا نور » ، يفترض أن جميع العميان يعيشون فيه ، ولكن هذا يخلف مع ذلك هذه الجماعة من للعميان المحرومين تماماً من أى نور ينفذ إليهم ، والذين لا يعيشون أية أحاسيس من النور والألوان التى تحدثنا عنها . فهل يمكن أن نصف حالتهم وصفاً كافياً على أنها انعدام النور ؟ هل لنا ، قبل كل شيء أن نتصورهم على أنهم يعيشون « فى الظلام » ؟ - الإجابة على السؤالين هى بالنفى .

هم محرومون من الإبصار . وفى هذا يقوم عما هم . وهم أيضاً محرومون من النور ، ولكنهم ليسوا فى الظلام بالمفهوم الشائع للظلام كشيء خصائصه إيجابية : « كانت ليلة حالكة » ، « كان الظلام من الكثافة بحيث يخيل إليك إمكان قطعه بسكين إلى غير ذلك . ولقد ألح كنتسفورت^(١) Catsforth ، وشيفينى^(٢) Chevigny - وهما الكاتبان الكفيفان اللذان أسهما أعظم إسهام فى هذا الموضوع - على الحقيقة التى مؤداها أن تغيب النور ليس معناه الشعور بالظلام ، فلقد أشارا إلى الخطأ الذى يقع فيه الكتاب عن العمى عندما يتصورون الظلام وكأنه شيء إيجابى ، وواقع محسوس . وكلاهما ينبه إلى الظاهرة المعروفة عند علماء الطبيعة باسم « التكيف للظلام » . فسيان كنا من المبصرين أو من العميان فإننا نستطيع ونصبح فى حالة « تكيف للظلام » . فبعد فترة فى الظلام يتوقف الظلام عن أن يكون « حلكة » ، على النحو الذى كانه عند بداية قطع النور فجأة ، وإنما هو بالحرى رمادى

(١) الأعمى فى المدرسة والمجتمع ، توماس كنتسفورت Thomas Cutsforth Ph. D. American Foundation for the Blind, 1951.

(٢) تكيف الكفيف - هيكتور شيفينى ، سيديل برافرمان Hector Chevigny and Sydell Braverman, Yale University Press, 1950

معتدل . يقول جلدارد Geldard^(١) . . عند النظر إلى الحلقة الفيزيائية لا يعيش الإنسان السواد ، فليس السواد بتغيب للإحساسات ، ففي الغرفة المظلمة لا يعيش الإنسان السواد ، وإنما الرمادية ، أو الرمادية الأرجوانية ، وربما يرجع ذلك إلى عملية مستقلة تجرى في المخ . وأحياناً ما يسمى ذلك « الرمادية الخفية » أو « النور الذاتى للشبكية » . ومن المحتمل فيما يبدو أن تكون الرمادية عملية خلفية مستمرة بحيث يتحتم على كل تنبيه أن « ينفذ خلاها » أو ربما « يشكلها » ، حتى يكون من الممكن للفرد أن يعيش الخاصية البصرية .

فكلنا قد عاش ولاشك تجربة الاستيقاظ في جوف الليل وهو في غرفة انطفأت فيها الأنوار تماماً ، فبدأ يشعر بالتدرج أن بوسعه أن يرى هيئة الأشياء في هذا السواد الذى يتحول إلى الرمادية . والتجارب التى أجريت في كهوف بلا نور قد كشفت عن أنه مع اطراد « التكيف للظلام » يفقد الشخص الإحساس بالظلام كشيء إيجابى ، وهو الإحساس الذى يستشعره في بداية التجربة . ويتحدث كتسفورت عن « حقل بصرى خال من الشعور بالظلام إلى الحد الذى بدا معه ، وكأن الأشياء ينبغي أن تكون ممكنة التميز » . من الممكن أن نقول أنه بعد التكيف للظلام لا يعيش الإنسان « الحلقة » بقدر ما يعيش « تبينا بعينه » لانعدام النور ، وإذا كانت الحلقة خاصة الظلام المطبق ، فإن تبين انعدام النور إنما هو واقع فيزيائى .

وعليه فمن الواضح أن الماثلة التى تجعل النور والبصر شيئاً واحداً أو بطريقة عكسية ، تجعل العمى والظلام شيئاً واحداً ، إنما هى زائفة حقاً ، بل وأكثر من ذلك أنها « جد ضارة » بالعميان وحاجزاً يحول دون تقبلهم في المجتمع . وهذه الماثلة تستخدم كرمزين للإبصار والعمى ، رمزين

(١) « الحواس البشرية » فرانك أ . جلدارد - الناشر جون ويلى وولده ١٩٥٣

أساسيين بالنسبة للبشرية ، وهى إذ تفعل ذلك تضمنى على العمى دلالة رمزية لا ينبغي أن تكون له (وكان حرياً بالذين يعملون مع العميان أن يكونوا آخر من يقبل ذلك) .

فالنور — فى فكر البشرية البدائية والمتحضرة على السواء — يرتبط بمفاهيم الحق والجمال والخير ، فهو « فيزيائية سامية متعالية » . إنه معرفة وحب وأمل . فالديانة المسيحية بفلسفتها اللاهوتية ، وبخاصة عند كبار فلاسفتها فى الشرق وإن كان هناك البعض فى الغرب ، تحتوى على ثروة هائلة من « تراث النور » ، حيث نجد مماثلة النور ليس مع الخير والرحمة والسموات فحسب ، وإنما أيضاً مع « الله » جل جلاله .

والظلام من ناحية أخرى : انتفاء النور ، قد غدا رمزاً للجهل والخطأ ، للقيح ، للشر ، لليأس ، وللحقْد . فقدا الظلام حلقة ، وسوادا ، وليلا ليس له من آخر ، « ظلال الموت » بل الموت نفسه . ووقت الظلام ، وفرة الليل ، كانا دائماً أبداً ينظر إليهما على أنهما الوقت للتآمر والحقْد والجريمة والرديلة .

إن الظلام غامض ومروع ، والقوى « الشيطانية » تعرف على أنها « قوى الظلام » .

تلك هى معانى النور والظلام من الزاوية الانفعالية للإنسان . ليس بالنسبة إلى الإنسان البدائى فحسب ، وليس بالنسبة للإنسان المتحضر وكفى ، وإنما بالنسبة للإنسان على الإطلاق وإن اختلفت الدرجة ، والنعمة والظلال والفهم — ولا يقتصر أمر ذلك على المبصرين ، وإنما ينسحب أيضاً على العميان .

فما دمنا نجعل من العمى مكافئاً للظلام فإنه يترتب على ذلك ، أن يكون مكافئاً لشتى مفاهيم « الظلام » . ومثل هذا ليس من شأنه أن يزيل الحاجز المنيع الذى يحول دون التقبل التام للعميان فى أماكهم الحقّة من مجتمع المبصرين .

وحيث إن هذه المماثلة جد ضارة بفهم العمى والعميان ، أفليس من التناقض ، بل ومما يبعث على السخرية ، أن تنغرس هذه المماثلة في شعور الناس بفضل أولئك الذين وهبوا حياتهم لخدمة العميان وبفضل العميان أنفسهم ؟ ولقد أبان كتسفورت وشيفيني عن مدى ما تضطلع به مؤسسات العميان سيان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من غرس لهذا التصور . وقد أشار الكاتبان إلى هذا العدد من المؤسسات ، التي تتضمن أسماؤها « النور أو الشروق » أو كلمة من الكلمات المشتقة عنهما ، والتي تستخدم في شعاراتها هذه الألفاظ أو ما يماثلها من أفكار ، والتي تحمل مطبوعاتها عناوين تشير إلى نفس التصور ، والتي تتحدث في إعلاناتها وأساليبها التي تصلها بالناس ما يعد في صور مختلفة امتداداً لنفس التصور ، أو التي تقول أو تفعل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ما من شأنه أن ينشر مفهوم العمى كـ « عالم مظلم » من الرعب واليأس .

وإني شخصياً ما زلت أذكر في شيء من الشعور بالحرج ما كان عليه تقبلي السهل للتصور عند ما بدأت عملي مع العميان ، وما كنت عليه من تهور لنشره حتى أبان لي الآخرون زيفه — والتصور لا يزال قائماً في الحقل قوياً عنيداً .

وثمة مثالان خطيران ظهرا حديثاً فيما يتصل بزيادة التبرعات لتمويل المؤسسة ؛ المثال الأول يعزى إلى مؤسسة أهلية كبرى من مؤسسات العميان ، ويعزى الثاني إلى إحدى الجمعيات الكبرى للعميان ، أما النداء الأول فيشتمل على « كتاب ملون » من المفروض أن طفلاً أعمى يملكه . كان الغلاف يسطع بالألوان والأشكال التي تستهوى الطفولة . ولكن لا يكاد المتبرع المفترض يفتح الكتاب ، حتى تصدمه صفحة حالكة السواد تمثل ما يبدو عليه هذا الكتاب الملون للطفل الأعمى .

أما النداء الثاني — وهو لا يكاد يختلف عن سابقه — فإنه يقدم هو الآخر

صفحة فاحمة السواد تمثل ما يبدو عليه العالم بالنسبة للأعمى البالغ . ومن المحتمل أن يكون هذان النداءان عظيمى الفاعلية فى زيادة التبرعات ، ولكن ليس هناك قدر من المال يعادل الضرر الذى تلحقه بالعميان مثل هذه التصرفات .

ولكن إقامة هذا الصرح الخاص بتصور الظلام ليس من عمل المؤسسات والجمعيات وحدها ؛ فقد أبان كنتسفورت وشيفينى - وهما من العميان - عن مدى ما يسهم به العميان أنفسهم دعماً للتكافؤ ما بين العمى والظلام . وهما يشيران بصفة خاصة إلى الكتب التى كتبها العميان والتى تدور عناوينها حول المضى فى حياة « الظلام » أو الإفلات من « الظلام » . وما من شخص استمع إلى كثرة من العميان (ممن لهم أو ليس لهم إدراك النور) وهم يتحدثون مع المبصرين إلا وقد سمع أكثر من مرة ما يتم عن أنهم « يعيشون فى الظلام » فلا غرابة إذن ، أن تستمر الغالبية العظمى من الناس فى اعتبار العمى مكافئاً للظلام ولكل ما ينطوى عليه « الظلام » بالنسبة إليهم من أفكار ومشاعر كراهية ومضرة .

ولكن مادام الظلام ليس له من وجود إيجابى ، وهما دما لم نجد أى فقدان للنور بالمعنى المألوف للكلمة ، فما عساه إذن يكون هذا « فقدان لأمن النور » الذى أشرنا إليه فى البداية ؟

لقد عرضنا فى الواقع لشيء شديد الشبه به عندما تحدثنا عن فقدان الخلفية البصرية - فقدان النور والتغير . غير أن فقدان أمن النور هو شيء يتميز عن ذلك فقدان الآخر ، وحيث إن هذا فقدان لأمن النور أليم بالنسبة إلى عدد من العميان متأخرى العمى ، فمن الضرورى أن نفهمه بشكل واضح وأن نتناوله فى عناية .

إن نسبة صغيرة من العميان ، كما سبق أن رأينا ، لا تستقبل أى نور ؛

« فانعدام النور » يصف حالتهم بأفضل مما يصفها « الظلام » . والمنتمون إلى هذه الفئة يعانون من فقدانهم « لأمن النور » بطريقتين :

أما الأولى ، فإن كثيرين منهم يفعلون ويلحق بهم الضرر بفعل التصور الشائع عن « حياتهم في الظلام » . فلو أنك خلال فترة طويلة وبصورة مستمرة عبيدة كنت موضع رثاء على أنك تعيش في الظلام ، فمن الممكن بالفعل أن تنتهى إلى تصديق ذلك ، اللهم إلا إذا قمت بتفحص واع وإعادة تقدير للموقف . أما إذا كنت تام العمى منذ الطفولة فلن تكون لك معرفة عن النور والظلام ويتحتم عليك عندئذ تصديق المبصرين الذين يقولون لك إنك تعيش في الظلام : وكثير من العميان متأخري العمى ظلوا خلال فترة طويلة يخافون اكتمال فقدانهم للبصر على أنه الظلام بحيث إنه عندما تحقق ذلك لم يحاولوا قط تفحص الموقف وإعادة تقويمه « تقديره » حتى يتبينوا هل هم « بالفعل » في ظلام ؛ ومن ثم فإن الدلالة الشاملة للتصور ، بشتى مفاهيمه الكثيرة يمكن أن تستولى عليهم وتستبد بهم ، وكثيراً ما يحدث ذلك .

أما الطريقة الثانية ، التي تؤدي إلى فقدان أمن النور ، فإننا نجد أن « انعدام النور » - حتى بالنسبة إلى هذه الجماعة الأكبر من العميان والتي ترفض التصور الشائع - إنما يمكن أن ينطوى على دلالات مزعجة . وغالباً ما تكون هذه الدلالات المقلقة ناتجة عن ارتباطات في الحياة الشخصية للفرد تتصل بالليل و « انعدام النور » . فمن الممكن في كثير من الحالات أن يكون الشخص في طفولته ، وعلى الأخص في الطفولة المبكرة ، ربط ما بين مقدم الليل وانعزاله عن الحب .

« فانطفاء الأنوار » كان يعنى الانعزال ، إذ يجد نفسه يوضع في غرفة وحيداً مع مشاعر انعدام الأمن ، ومقطوعاً بعيداً عن الأم والأب وجميع من كان من الممكن أن يمنحوه الحب . كان وقت انعدام النور هو وقت انعدام الحب ، وعندما كان الحب يهبط الدرج ويكون في صحة

الكبار ، فإنه كان سجيناً وراء باب الغرفة المغلق ، عاجزاً عن أن يشعر بذلك أو يتبينه . مثل هذه المخاوف ومشاعر انعدام الأمن يمكن أن يكون قد تم كتبها بنجاح فى السنوات التالية .

ومع ذلك تظل أوقات انعدام النور تعنى بالنسبة إليه فرصة التعرض للاندلاع المفاجئ للقلق .

إنه يجد نفسه الآن بصورة متصلة فى وقت انعدام النور : فإذا كان « انعدام النور » يعنى أيضاً « انعدام الحب » فإن الطابع الأبدى للعمى المستمر يمكن أن يضيف حدة خاصة إلى مشاعر الانعزال . إن مشاعر الانعزال تبدو ليس لها من نهاية : ومن الممكن لمشاعر انعدام الأمن الناتجة عن ذلك أن تكون جد عسيرة فى تناولها . وهكذا نتبين مرة أخرى فى فقدان من الفقدانات التى تقيم العمى ليس فحسب عامل الواقع بماله من أهمية ، وإنما نتبين أيضاً حشداً من الدلالات والترابطات التى تنضاف إلى الفقدان .

وباختصار ، فعلى الرغم من أن فقدان الفعلى للنور لا يحدث فى كل حالة من حالات العمى ، وعلى الرغم من أنه لا ينبغى قط تصوره وكأنه يمثل وحدة العمى ، « وعلى الرغم » من أنه أكثر من ذلك لا ينبغى قط تصوره فى سياقه الانفعالى الملىء الذى تنوهم له العامة ، فهناك مع ذلك البعض يفقد « بالفعل » النور ، ونتج عن ذلك فى بعض الحالات فقدان الأمن النور .

وقفة لاستجماع الانفاس

هذه وقفة حيث يحتمل أن يستشعر القارئ الحاجة إلى فرصة يستجمع فيها أنفاسه ويتنسم شيئاً من الهواء بعدما غاص طويلاً .

فالكتاب منذ فقراته الافتتاحية الأولى قد غاص إلى أعماق سحيقة للانفعال واتجه إلى جنبات معتمة من النفس البشرية ، ميتة ، عمى ، جَدْع (بتر) مخاوف تتعلق بصورة البدن . انقاف (استئصال مقلة العين) . هلع ، التوجه الخاطيء ، ذهان ، عصاب ، صدمة ، ظلام ، انعدام الأمن ، سحر ، رعب ، العين والد (أنا) The Ego and the Eye .

وحتى في أيامنا هذه التي تهيم فيها السفسطة السيكلوجية ، فليس هناك كثير من الناس يغامرون بقراءة مثل هذه الكتابات . فالقراء الذين يستشعرون في أنفسهم اضطرابا مهما بعد قراءة الصفحات السابقة إنما يعيشون استجابة طبيعية . وإذا كان لنا أن نفهم العمى كشيء أكثر من مجرد فقدان آلى ، فإنه يتحتم علينا أن ندرس العمى في تأثيراته في الطبيعة البشرية . ومن المحتمل أن يستشعر بعض القراء وهم يتقدمون إلى الأمام في صفحات هذا الكتاب ، أنهم قد بلغوا من الطبيعة البشرية أعماقا لم يسبق لهم قط أن استكنوها . ولكن الطبيعة البشرية هي طبيعتنا ، وفي كل مرة نتوغل في أعماقها أكثر فإننا إنما نكشف بذلك عن بعض مخائئ أنفسنا . إن ذلك هو السبب فيما نشعر به من اضطراب بأكثر مما هو العمى .

ومن المحتمل أن يكون قراء آخرون قد استشعروا قدراً أكبر من مشاعر الاضطراب بسبب ما لديهم من صلات وتطابق مع العمى — أبصارهم آخذة في الضعف ، واحد من معارف الطفولة كان من العميان ، واحد وثيق الصلة بهم قد فقد بصره أخيراً ، عملوا خلال فترة مع العميان . مثل هؤلاء القراء يمكن أن يستولى عليهم الآن شعور قوى بأن هذا الكتاب ينزع إلى وصم العميان بحسبانهم « مختلفين » ، وبشكل ما « شواذ » ، ولكن ما هو السبب الحقيقي في أن هذا النفر من القراء يستشعر قدراً أكبر من مشاعر الاضطراب عند تتبعهم لتحليل ما يحدثه العمى من أثر في الناس ؟ إن السبب الحقيقي إنما ينحصر في أن العميان من الناحية النفسية ، ومن حيث

الطبيعة البشرية ، لا يختلفون عن سائر الناس ، ومن هنا فإننا نطبق ما يقال عنهم على أنفسنا . وهذا هو الذى يسبب الاضطراب والرعب :

فأما الفئة الأولى من القراء فإنى أعتقد أنه قد حان الوقت بالنسبة إليهم كى يقفوا وقفة استجاء للأنفاس — ولست أعنى بذلك فترة طويلة من الانطوائية ، وإنما هو استعراض هادئ لما تعلمه عن الطبيعة البشرية يخلص منه إلى أن يتبين مدى ما يطبعنا جميعاً من طابع البشرية .

وأما الفئة الثانية من القراء فإنى أكرر لها هذا الاقتراح الذى ضمته المقدمة .

فبدلاً من الاستمرار قدما فى هذا القسم الأول الطويل ، الذى يضطلع بتحليل الفقدانات التى يعيشها الشخص الذى يفقد بصره ، والانتقال إلى القسم الخاص بالتأهيل ؛ اقرأ أولاً الصفحات الخاصة بفقدان بعينه ، ثم انتقل إلى هذا الجزء من الكتاب الذى يحدثك عما ينبغى عمله لهذا الفقدان . أما إذا أردت — على العكس من ذلك — أن تبلغ إلى استبصار بالوظيفة الكلية لفقدان البصر ، فمن الأفضل أن تمضى قدما عبر الفقدانات الأخرى ، فتبين وتستشعر شيئاً مما تحدثه عند الأعمى ، وعند المحيطين به . وفى كثرة من الأمور التى كانت تشكل أهم جنبات حياته .

الفصل الثالث

فقدانات في المهارات الأساسية

٦ - فقدان مهارة التحرك

إن الشخص الذى يفقد البصر فجأة (وعند ما نضع في اعتبارنا أن فقدان البصر تام ومفاجئ فإننا ندرك عندئذ إلى أى حد يمكن أن تكون الضربة قاصمة) يفقد قدرة الحركة . إنه مثبت ، مسمر ، منحبس في البقعة التي يقف فيها . إنه فقد واحدة من هذه العلامات الأولى التي ترمز إلى التطور في طفولته - ونعني القدرة على المشي . وإنه ليقف ، يمسكه الهلع والخوف - فتحات متثابثة من حوله ، وننوءات مهددة . عندما يكون بمفرده يتوهم الأعين تلاحظه . وعند ما يكون الناس من حوله ، يستشعر العزلة وانقطاعه عنهم . إنه بغير أمن ، بغير نضج ، وإمكانات البالغ بغير مقدرة - كيان « تابع » بشكل مروع .

تلك لوحة مغالية تضم معاً أسوأ ما هنالك . ومع ذلك فإنه حتى حين يزحف العمى تدريجياً ، وحتى حين لا تبلغ آثاره حد الاكتمال والترويع ، فما من واحد من العميان إلا ويستشعر شيئاً من هذه المشاعر . وفي بعض الحالات فإن هذه المشاعر المتضافرة إنما تبرز فحسب بعد محاولات سابقة لأوانها للتنقل . وفي حالات أخرى يمكن أن يكون الشعور بالهلع جد هين : ولكن بالنسبة إلى أى بالغ عادي في نشاطه ينزل به العمى ، يكون فقدان القدرة على التحرك فقداناً رئيسياً ؛ ذلك أن القدرة على التحرك تعني أكثر من المشي : إنها تعني التنقل من مكان إلى مكان بالوسائل العادية التي يستخدمها الناس عادة ، سيات أكان ذلك في الأماكن المحدودة كالغرفة أو المنزل التي نعمل أو نعيش فيها ، أو كان في المناطق الجغرافية المحلية أو المترامية . إن

القدرة على التحرك تعنى الذهاب إلى مكان ما مجرد الرغبة في الذهاب من هنا ، بل حتى مجرد الرغبة في الذهاب . وكلنا قد رأينا العميان ينتقلون من مكان إلى مكان بطريقة ما . وإننا لنعلم أن انعدام القدرة على التحرك في شكله التام عند الأعمى وعلى النحو الذى صورناه سابقا ليس واقعة مستمرة .

ففى الواقع الفعلى لا تتشاب الأماكن على الدوام ، كما أن الموانع لا تبرز هى الأخرى على الدوام لتسد الطريق . فالأعمى فى واقع الأمر حين ينتقل فى محيط بيته بعد فترة وجيزة من فقدانه البصر ، إنما يشبه فى موقفه كثيرا سائر الناس عند ما يحدث لهم فى الغالب أن ينتقلوا فى محيط بيوتهم بعد إطفاء الأنوار .

ومع ذلك فهناك اختلاف هائل ؛ ذلك أن الشخص الذى يفقد البصر يجد نفسه إما أمام نهاية قاطعة مروعة من العمى ، وإما أمام الإمكانية التى يتبينها فجأة لمقدم هذه النهاية . فهو إما أن يعرف أنه لن يرى أبدا ، وإما أن يعيش بالخوف من أن يكون ذلك هو الحكم الذى سيصدره الطبيب . أما المبصرون فهم على ثقة من أن الظلام سيزول ، طال الوقت أو قصر ، ومن ثم فإنهم يستطيعون فى العادة الهيمنة على الحوافز العصابية لخوفهم . ولكن حتى مع ذلك فإننا حين نكون فى الظلام ، يصبح ممكنا لظروف غير عادية طارئة أن ندفع إلى السطح الهلع العصابى فى صورته المكتملة .

وليس من شك فى أن الأعمى حديث العمى ، يمكن أن يعيش نفس هذا النوع من المخاوف العصابية ، ولكن من الخطأ الفاحش أن نعتقد أن مخاوفه كلها ليست غير مخاوف عصابية ؛ فكثير من هذه المخاوف ، يستند إلى أسباب جد واقعية . وخوفه من التنقل (بما فى ذلك خوفه من المشى حتى داخل بيته) يمكن أن يشتمل فى نفس الوقت على حوافز عصابية وحوافز واقعية .

فعدم ما يعتقد أو يستشعر ، أن الأرضية في غرفته قد تغيرت فجأة في هيتها أو شكلها ، وعند ما يستشعر أنه من الممكن أن تكون بها فتحة - كأن تتوقف الأرضية فجأة فلا تكون متصلة ، أو يتخوف من أن يكون شخص ما قد أزال القضبان الجاهزة عند بئر السلم ، فثقل هذه إنما هي مخاوف عصبائية . ولكن على العكس من ذلك عند ما يعتقد أن من المحتمل أن يكون مقعد في طريقه يمكن أن يصيبه في قصبة ساقه أو يجذع أصابع قدمه ، وعند ما يفكر في أنه من الممكن أن يرتطم بحافة المنضدة فيترنح ، أو يصاب بشكل ما ، وعند ما يخاف من أن يكون شخص ما قد ترك الباب نصف مفتوح بحيث تتجه إليه حافته الحادة ، وأنه من الممكن أن يصطدم بها في اندفاعه فينجرح وجهه وينزف - كل هذه إنما هي مخاوف واقعية تعد عادية وتحدث للإنسان العادي .

وهذا التمييز يعد غاية في الأهمية . وإليك بعض الأمثلة :

فالزحام في المحال لا ينطوى في العادة على خطر ، ومن هنا فإن الشخص الذي يستشعر هلعاً مبهماً بدون سبب وسط زحام كهذا إنما هو فريسة لمخاوف عصبائية . ومن ناحية أخرى ، فإن زحام الناس حين يفقد السيطرة ، ويفقد لحامه فيتخبط ، متخذاً صورة الدهماء ، فإنه يمثل خطراً واقعياً . فزحام الناس الذي يدفعنا على الرغم منا ، وبصورة لا يمكن مقاومتها ، إلى فتحة من فتحات قطار الأنفاق ، إنما هو تهديد واقعي لأننا وحياتنا . والشعور بالخوف في مثل هذه المواقف معناه الشعور بخوف واقعي عادي سوى . ومثال آخر يتضح في حالة الشخص الذي يخاف من الأماكن العالية في ذاتها . فيخاف من الجلوس في الشرفات ، أو من أن يصعد إلى ما فوق الطابق الثاني من المباني ، فهو شخص يعاني من مخاوف عصبائية .

ولكن الشخص الذى يجد نفسه فى مكان مرتفع — على حافة جرف — مثلاً — ويتعرض بالفعل لخطر الوقوع والموت ، سواء بسبب دفع يائيه من الخلف أو بسبب قلق الموضع الذى تركز عليه قدماه ، فإنه يخاف وخوفه واقعى عادى سوى .

فى مستوى الواقع هذا — ودون ما تعرض للعصابى كائناً ما كان للأعمى أن يخاف من أشياء كثيرة إن أراد أن يمشى أو ينتقل — وهناك فصل متأخر فى هذا الكتاب يتناول بالشرح طريقة الدربة على التحرك التى تستبعد كثيراً من هذه الأخطار ، وتعين المحاولة والخطأ فى تقليل المخاطر الأخرى . ولكن سيظل دائماً أبداً قدر أكبر من الخطر ينتظر الأعمى فى تحركاته إن هو قيس بالنسبة إلينا ، فسيكون هناك دائماً أبداً قطع الأثاث والموانع الصغيرة فى البيت ، وستكون هناك ممرات تنتهى بسلام ، ومصبات « حنفيات » الحريق البارزة ، والحيوانات ، والأطفال بسياراتهم ، الصغيرة ودراجاتهم ، وعربات النقل حين ترجع بظهرها إلى الخلف ، والظلل « التندات » المنخفضة ، والحافات الحادة للشارت المتدلية المنخفضة ، واندفاعات المتعجلين على طول طريقه . وسيكون هناك ثلج وجليد ، وهناك الزيت والأماكن الزلقة والحفر و « الباكورتات » ، وستكون هناك سيارات — سائقين يحترمون تعليمات المرور والسرعة وسائقين يضربون بها عرض الحائط ، وسائقين بأغلقة ضد الريح ، وسائقين تتسلط الشمس على أعينهم ، وسائقين يخرجون بظهور عرباتهم من الممرات ، وسائقين ينعطفون فجأة عند ناصية الطوار . وفى هذا كله خطر — واقعى — من الإصابة بإصابات طفيفة ، أو بإصابات خطيرة ، أو بالموت ، أو فقط بمعاناة الارتباك .

ولإذن فى مستوى الواقع ليس غير ، يحتاج الأعمى بالقياس إلينا إلى دافع أكبر كى يحمله على التنقل .

ويعد التريض والاستمتاع حوافز كافية تدفع الكثيرين إلى المشي ولكن قلما يصدق هذا على الأعمى غير المتمرس . فالحافز لا يكون من القوة التي تمكنه من التغلب على المتاعب ، فالحافز لا يتغلب على الكدر الشديد للتوتر وخطر الإصابة البدنية .

والملل من المكان الذي نكون فيه ، والضجر به ، والعصبية ، والحاجة إلى تغيير مناظر ، يمكن أن تكفي كحافز لنا يدفعنا إلى أن نهض ونمضي إلى أى مكان (أو حتى مجرد أن نذرع الحجرة) ولكن الضجر والعصبية ، والحاجة إلى تغيير المكان ينبغي أن تكون أكثر شدة عند الأعمى بسبب المصاعب التي تكتنف سيره . ومن الممكن أن يكون المكان الذي نريد أن نذهب إليه محلاً للعمل ، أو نادياً ، أو سينما ، أو مرقصاً ، أو كنيسة ، أو سهرة ، أو حانة ، أو منزل صديق - هو الذي يزودنا بالحافز الذي يدفعنا إلى أن نتحرك ، ونمشي ، وننتقل عبر المدينة . وفي كل مثل من هذه الأمثلة ، يتحتم على الحافز أن يكون عند الكفيف بدرجة أكبر تناسب مع درجة المصاعب المضافة التي تكتنف انتقاله .

فإذا ما انضافت إلى كل هذه المصاعب الواقعية بعض المخاوف العصبائية التي سبقت الإشارة إليها فعندئذ تقتدر أشد الحوافز وحدها ، حوافز الحاجة القهرية على أن تدفع الأعمى إلى أن يتحرك . وفي مثل هذه الحالة يعد الأعمى حقاً لم يتحرك . وهذه الصورة العصبائية لعدم القدرة على الحركة يمكن أن تتعرض للإنكار من جانب الشخص الذي يعانيها . فمخاوفه يمكن أن تضطلع بعض العمليات اللاشعورية بتبريرها وتعتيلها كأن يعتقد أنه « لا يحفل بالخروج » وأن « هذه الأشياء لا تعنى شيئاً بالنسبة إليه » أو أنه « سعيد وراض تماماً » بأن يلزم مكانه يستمع في ارتخاء للراديو . ولكن التوترات في داخله يمكن أن تكون ماضية في توليد الصراعات الأليمة والشقاء :

والفصول المتأخرة من هذا الكتاب سوف تعرض بالدراسة لعوامل أخرى ينبغي أن تكون في حسابنا من حيث ارتباطها بهذا فقدان القدرة على التحرك في علاقة هذا فقدان بالحياة المهنية ، والترويح ، والصلاحية الاجتماعية ، مثلاً . فإننا حتى الآن لم نزد على مجرد تعديد للعوامل جد الهامة التي تسبب في الشعور بالارتباك هذا الذي ينجم عن الاختلاف ، وعن الحركات الخاطئة أمام الناس ، وعن الشعور بأن الأنظار ترقبه وهو يرتطم بعمود النور ، وعن الشعور بأنه موضع رثاء ، وعن كل المتضمنات المدمرة للتبعية .

ولكن حتى بصرف النظر عن هذا كله يظل فقدان القدرة على التحرك فقداناً رئيسياً بشكل واضح - واحداً من أعظم فقدانات الواقع التي تترتب على فقدان البصر . إنه موت لاستقلال البالغ . إنه عودة إلى انعدام القدرة على التحرك ، أو تبعية أيام الحبوى الطفولة ، أو هو الدخول في التبعية البطيئة المتناقلة المميزة للشيخوخة .

٧ - فقدان فنيات الحياة اليومية

ليس هناك أمور عميقة تتصل بهذا فقدان : فهو يتكون من آلاف الإحباطات التي تتكرر في كل يوم من حياة الأعمى والتي تذكره أنه أعمى - ولا تسمح له قط أن ينسى أنه أعمى . هذه الأشياء الصغيرة - تبعث على الخلل بما تنطوى عليه من متاعب وإرباك وإيلام - هي التي تسارع بتوليد الشعور بالعجز والتبعية عند الأعمى .

« حقاً إنه مدهش للغاية فهو يقتصر على أن يضحك من هذه الأشياء ، رأيته منذ أيام وشعرت بالخرج من الغلطة التي صدرت عنه ، ولكنه لم يستجب لذلك بأكثر من نكات المداعبة الساخرة » . وإنك لتساءل : هل الأشخاص الذين يقولون مثل هذه الأشياء عن الأعمى يفهمون أى شيء عن الطبيعة البشرية ؟ أفنى وسعهم أن يتصوروا مدى ما كان عليه الموقف

من بعد عن الفكاهة بالنسبة للشخص الذي استجاب بالسخرية الضاحكة ؟
وأن هذه السخرية الضاحكة إنما كانت الوسيلة الوحيدة أمامه للإجابة
على الموقف ؟ .

عملية الأكل والشرب والتبول والإخراج ، ومراعاة النظافة البدنية
وحسن الهندام ، وخلع الملابس بالليل وارتداؤها في الصباح . حتى في
مستوى هذه الوظائف الأساسية البسيطة ، يجد الأعمى نفسه معوقا ،
كانت هذه الوظائف في عملية نموه الباكر من أوائل الأشياء التي تعلمها ،
كانت في طليعة الأفعال التي أكسبه النجاح فيها المديح ومظاهر الإعزاز
العاطفية : « ابني ، إنه يصبح الآن حقا ولدأ كبيراً » ، والآن ! فإنه حتى
في هذه الوظائف يعاني الإعاقة والإحباط والارتباك : غرق إلى أعماق غائرة ،
ونكص إلى وراء بعيد سحيق .

وإذا أردنا أن نعد قائمة نصنف فيها مختلف الصعوبات التي ينطوى عليها
هذا فقدان لفنيات الحياة اليومية فإننا نحتاج إلى كتاب كامل : وفي الواقع
فإن كثرة من الكتب التي كتبها العميان ليست غير سلسلة من الحكايات التي
لا تنتهي عن مثل هذه الإحباطات الصغيرة وكيف عاشها أصحابها ، وذلك
في أسلوب فكاهي مرح .

فعملية الأكل يمكن أن تتسبب في كثير من المصاعب إلى حد أن نفرأ
قليلا من العميان يلقي سلاحه في معركة تناول العادى المألوف للطعام مرتدأ
إلى « مريلة » الطفولة والمعلقة . ولتحاول بنفسك بعض الوقت — أن تعيش
معصوب العينين تجربة فنيات تناول الطعام : وستعلمك التجربة الكثير —
لا عن العمى — وإنما عن هذا الوجه بعينه من أوجه العمى . تمتد يدك تلتمس
الصنف الأول الموضوع أمامك ، في حركة تفتيشية ، ثم تجده ؛ فتقوم على
اكتشافه محاولا أن تبين نوعه على التحديد ، وبذلك فقد تستطيع أن تعمل
يديك في تناوله : أهو « طبق » من الفواكه ، أو خلطة من الجمبرى ،

أو عتقود عنب أو عصير الطماطم في كوب عال أو عصير الطماطم في كأس قصيرة أو عصير الطماطم في كوب مدفون في وعاء مليء بالثلج أو صنف من أصناف « الأماطية » « جيلي » ، أو حساء ساخن ؟ ما هو ؟ أهو صنف يؤكل أكلا ، أم يرتشف ارتشافاً ، أم يشرب شرباً ؟ وهل أدوات المائدة تعين في ذلك ؟ ما هي هذه الأدوات الموجودة ؟ وهي الأكواب والأقداح التي توجد من حوله عندما تشرع في عملية الكشف في المنطقة المحيطة بالصنف ؟ تلك ليست غير الجولة الأولى ، وعندما تمضي في الأمر تنتظر « المطبات » الصغيرة ، بل وأحياناً هذا القدر الهيب المروع المصنوع من الورق والمليء « بالصلصة » أو هذا الصنف الذي يربص بك حين تضرب ضربتك بالشوكة لتبدأ الأكل : كل صنف من الأصناف الرئيسية يكون مبعث إرباك لك ، لم تعد لك المقدرة على أن تختار فتتناول ملء الشوكة من هذا ثم ملء الشوكة من ذاك ، وإنما تهبط بشوكتك في كل مرة وأنت قانع بما عسى أن تعود به ، راجياً فحسب ألا تعود إليك فارغة أو قد تعلق بها صنف الطعام كله . ولن تحفل بأن تدهن خبزك بطبقة من الزبد لأنك لو كنت أعمى كغالبية العميان فلا بد وأنك تكون قد اتخذت قرارك بأن المسألة لا تستحق ما تتطلبه من نضال وأنك لن تحفل بعد ذلك بالمزيد — هذا إلى أن الزبد من عوامل البدانة .

إن الراشد الذي يفقد بصره ، لا يكون بالطبع في حاجة إلى برنامج « للدربة على التواليت » بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ، ولكن حين ينقل إلى العمى ما لديه من مشاعر إرباك في مجال الوظائف البولية والإخراجية ، وهي مشاعر غرسها الجليل السابق في الكثيرين منا ودعمتها الحمامات العمومية الأمريكية ، نقول حين ينقل إلى العمى ضروب قلقه إزاء الميكروبات والقذارة بحيث تكون النظافة ، لا مجرد هدف يحرص عليه فحسب ، وإنما دافع قهري بدرجة أو أخرى من درجات القهر — فعندئذ يتسبب انعدام البصر عنده وخاصة في حمام غير حمامه ؛ وأكثر من هذا في حمام عمومي في إثارة

مشاعر الاضطراب الشديد . وبالنسبة إلى الرجل تنضاف مشاعر المذلة التي تستولى عليه في موقفه الذي يتحتم عليه الاطمئنان إلى خلو المكان في كل مرة يريد التبول . وبصورة عامة تقوم بالنسبة إلى الرجال والنساء مشكلات النظافة الشخصية .

وليس النظافة وحدها هي التي تشكل مشكلة للأعمى ، وإنما أيضاً حسن الهندام العادي . وبينما تزايدت في الحياة الفرص التي من شأنها أن تنال الملابس بالبقع ، إما عن طريق شيء ينسكب ، وإما الارتطام بشيء متسخ تناقصت عند الأعمى إمكانية التنبه إلى البقع الهينة أو اتساخ الملابس . واللبس الذي يتسم « بالكرمشة » والهيئة التي تبدو مشعثة يمكن أن ينتجا ليس فحسب عن نزعة عصائية إلى الإهمال في المظهر مما نجده عند المبصرين أيضاً ، وإنما يمكن أن ينتجا أيضاً عند انعدام الوعي البصري باللباس والمظهر . وليس من شك في أن نزع الملابس لا يمثل صعوبة رئيسية ، وإنما هو فرصة تفرض على الشخص أن يتذكر عماه وهو يحاول « تعليق » ملابسه بحيث تحتفظ بهندامها وبحيث يسهل عليه في صباح اليوم التالي أن يعثر عليها وأن يميز بينها وبين ملابس أخرى . أما ارتداء الملابس فمسألة أكثر عسراً . فهناك اختيار رباط العنق الذي يساير لون « السترة » واختيار الجوربين (الفردتين) بحيث يكون الاثنان زوجاً متماثلاً من نفس اللون ، وليس من شك في أن هامش الاختيار يعد أرحب بكثير بالنسبة للمرأة الكفيفة ؛ فهناك مشكلة اختيار الملابس التي تتألف معاً ، وقطع الحلي ، والحقمية وما إليها التي تساير ذلك . وهي مشكلة تقوم في كل صباح وفي كل مناسبة من المناسبات العارضة .

ومشكلة انتقاء ملابس جديدة هي أيضاً جانب من هذه المشكلة ، فانتقاء الشخص الملابس الذي تتفق ومزاجه هي مسألة جد هامة بالنسبة إلى كثير من الناس ، فالمرأة الكفيفة المحرومة من فرصة الخروج لشراء قبعة

جديدة تجيب على أفكارها ومذاقها الجمالى إنما تجد ذلك باعثاً على الإحباط الشديد - ناهيك بأحاسيس الاعتداد بالذات التى توحى بها القبعة الجديدة لكثرة من السيدات .

خذ أيضاً فى مجال الطقوس « فريضة » حلاقة الذقن ، و « فريضة » (الماكياج) . وحتى حين تنتقى آلة من آلات الحلاقة التى تزيل شعر الذقن دون أن تزيل بعض أجزاء الوجه فإنه يبقى عليك أن تتأكد من أن كل جزء قد غدا « ناعماً » ، وأن تواجه المشكلة العسيرة مشكلة عدم المساس بخطى الشعر عند الأذنين وتناولهما بشكل يتركهما منتظمين وفى مستوى واحد . وبالنسبة إلى (ماكياج) المرأة فإن انتقاء العلبة الصحيحة والصابونة الصحيحة من بين غيرها وترتيب استخدامها الواحدة بعد الأخرى ، مشكلة عسيرة حتى بالنسبة للمرأة المبصرة والتى لا يعوقها العمى عن تبيين العلبة الصحيحة من بين اللعب الأخرى . فعملية (الماكياج) يمكن أن تتحول إلى تلطيخ بالبقع ، وأحمر الشفاه يزيد فى قبحه عن الندبة العادية ؛ وذلك عندما يكون الشخص عاجزاً عن تبيين مواضع الاستخدام أو التحقق من النتيجة . وحتى حين تتأكد من أن التى تمسك بها هى أنبوبة معجون الأسنان ، لا أنبوبة كريم الحلاقة ، ولا أنبوبة « الشامبو » فإنه تبقى أمامك هذه المشكلة الهينة التى تنطوى مع ذلك على القلق من أنك ربما لا تدفع المعجون إلى « فرشاة » الأسنان وإنما يسقط عليك أو على الأرضية أو فى بالوعة الحوض .

وما من شك فى أن هذا يعد كافياً ليريك كيف أن فقدان فنيات الحياة اليومية إنما هو فقدان رئيسى ، وذلك لما ينطوى عليه من آلاف المضايقات الهينة والمزعجات . تخيل نفسك بدون بصر تحاول أن تدبر المنزل ، وتدون حساباتك وتوقع الصكوك « الشيكات » ، تخصى النقود فى حافظة نقودك ، تعثر على التليفون ، تدبر الفكرة المطلوبة ، تحدد مكان

المفتاح الذي سقط منك على الأرض ، تعثر على القبة التي تعتقد أنك تركتها على الرف ، تحافظ على غرفة المعيشة بحيث تكون جذابة - وتشعل سيجارتك ، وتفرغ منفضة السجائر ، تقوم بتنظيف أركان الغرفة ، تشتري حاجيات البيت أو مطالبك الخاصة ، تأكل في مطعم من مطاعم « اخدم نفسك » ، تطهو العشاء أو الإفطار أو أى شيء آخر ، تنتقى علبة من علب الطعام المحفوظ من بين العديد من العلب ، إلى آخره ، إلى آخره .

إن فقدان فنيات الحياة اليومية يفرض التبعية ، وينحصر الجانب الأعظم من ألم هذا فقدان في هذه التبعية ذاتها ، وفي مشاعر الإرباك التي تتولد عنها ، كما يمكن في هذه المواقف التي تتكرر باستمرار وتفرض على الأعمى أن يتذكر عماه . وبهذا فقدان يصبح الأعمى في عداد الأموات من حيث الكفاية الذاتية ، والاضطلاع بمسؤوليات البالغ .

الفصل الرابع

فقدانات في وسائل الاتصال والتفاهم

٨ - فقدان السهولة في مجال الاتصال عن طريق الكلمة المكتوبة

إن هذا فقدان - وهو واحد من أكثر الفقدانات المترتبة على العمى ذيوياً وشهرة - إنما ينطوي بالطبع وبصفة أساسية على كتابة وقراءة رموز اللغة ، ولكنه يشتمل أيضاً على العلامات والرسوم والصور إلى آخره ، ومن ثم يمكن تسميته أيضاً فقدان الاتصال عن طريق « الصورة » :

فلو أن فقدان القدرة على القراءة كان يعنى فقدان القدرة على قراءة الكتب فحسب لما كان هذا فقدان من الفقدانات الواسعة الانتشار ، أو لما كان على الأقل خطير الأثر بالنسبة للغالبية العظمى من العميان : فالنسبة المثوية للذين يقضون فترات من الوقت في قراءة الكتب هي في العادة أقل مما نعتقد ، وبالتالي فإن الحرمان من هذه القدرة الخاصة إنما يهم عدداً من الناس أقل مما نظن :

ولكن ذلك لايعنى أن هذا فقدان لايشكل أكثر الفقدانات لإيلاماً بالنسبة إلى الكثيرين : وعلى الرغم من أننا نكاد نكون شعباً غير أمي فإن قراءة الكتب تلعب دوراً هاماً في حياة الكثيرين . فإذا ما ذهب العمى بهذه القدرة ، كان فقدان حاداً للغالبية . وعلى أية حال فإن فقدان القدرة على قراءة الكتب ليس غير عبارة لا معنى لها عند غير المعتادين على قراءة الكتب . ولكن هناك أعداداً هائلة من القراء ممن لايفتحون قط صفحات كتاب ، من بين هؤلاء أناس يقضون الجانب الأعظم من أوقاتهم الخاصة في قراءة المجلات . وكأئنه ما كانت قيمة الكتابات التي يقرأونها فإن فقدان القدرة على قراءتها يشكل بالنسبة إليهم أمراً جدياً خطيراً ،

وهناك أيضاً قراء المجالات النوعية ، والنشرات التجارية ، والمجلات المهنية ، ودوريات الاقتصاد والمشروعات والأعمال ، والتي يمكن أن تكون عظيمة الأهمية بالنسبة إلى عمل الإنسان في حياته .

وفقدان القدرة على قراءة هذا النوع من المطبوعات يمكن أن يؤثر تأثيراً مباشراً على قدرة الشخص في كسب عيشه ، أو على الاستمرار في الاحتفاظ بمكانته المهنية . هنا أيضاً يكون فقدان قاسياً .

وهناك أيضاً كثرة كثيرة من قراء الصحف اليومية . ومن بين هؤلاء قراء من النهم بحيث يفسد نهارهم كله إذا لم تقدم لهم الصحيفة مع الإفطار ، أو بحيث يعجزون عن قضاء المساء إذا لم يتسن لهم أن يتصفحوا الطبعة المسائية . انزع من هؤلاء الناس القدرة على قراءة الصحف تكبدهم بذلك فقداناً جسيماً .

وكذلك الحال بالنسبة إلى مختلف أنواع القراءة ؛ من الممكن أن تكون كتباً فكاهية أو كتيبات سلسلة الرسوم الضاحكة ، ويحدث أحياناً أن نجد كثيرين من العميان الناضجين الأذكياء يفقدون القدرة على ضبط أعصابهم أمام البالغين الذين يجدون من وقتهم ما يسمح لهم بقراءات من هذا القبيل . ومن الممكن أن تكون إعلانات ، أو ملصقات ، كما يمكن أن تكون النشرة الجوية . وكائنا ما كان نوع المادة المقروءة فإن فقدانها يشتد أثره أو يقل حسباً يكون لها من قيمة عند الشخص . ومشاهدة التلفزيون هي نوع آخر من القراءة وإن كان نوعاً أدخل في فقدان الترويح . وليس من شك في أن هناك أشكالاً من القراءة البسيطة من قبيل استخراج رقم من دليل التليفون .

ولكن أعظم فقدان في هذا المجال ، إنما هو فقدان الشخص لقدرة على أن يقرأ رسائله الشخصية التي ترد إليه وما يناظر ذلك من فقدان

القدرة على كتابة رسائله الشخصية : ومن ثم فقدان القدرة على الاستمرار في المكاتبات الشخصية ودون تدخل طرف آخر .

وهذه الفقدانات يمكن أن تكون جد أئمة ، لأنها لا تقتصر على مجرد التبعية ، بل تمس الخصوصيات الشخصية .

ومن الممكن أن يكون فقدان الشخص للقدرة على كتابة إمضائه واحداً من الفقدانات الخطيرة في هذا المجال . ومن الممكن من الناحية القانونية أن يوقع الشخص إمضاه بحرف « X » بدلا من اسمه ، ولكنها صفة لكبرياء وقيمة الذات . وكذلك الحال فيما يتصل بالقدرة على كتابة الصكوك « الشيكات » ، وبدرجة أقل فيما يتصل بتدوين مسحوبات البقالة ، أو رقم تليفون الصديقة ، أو البيانات الخاصة التي يريد أن يتذكرها أو عبارات التهئة على بطاقات عيد الميلاد .

ويكون فقدان القدرة على الكتابة باليد شيئا خطيرا بالنسبة إلى الكاتب والمحور والصحن وغيرهم ممن يعملون في أعمال مماثلة : وهناك أيضاً المحاسبون ، والرسمون ، والكاتبون على الآلات الكاتبة ، والمشتغلون بالطباعة ، ومن إليهم ممن يرتبط عملهم بالكلمة المكتوبة .

وهذا فقدان التام للسهولة في مجال الاتصال عن طريق الكلمة المكتوبة هو أعظم خطراً بكثير في أيامنا مما كان عليه في أى وقت مضى . ولا يقتصر الأمر على أن التعليم قد غدا واسع الانتشار ، وإنما أصبح من الشائع أن عدم القدرة على الكتابة والقراءة يعدل الجهل والغباء وإن لم يكن ذلك صحيحاً في حقيقة الأمر . فالأعمى من حيث هو عاجز عن القراءة والكتابة يصبح بمعنى ما (أميا) ، وهكذا يجد الأعمى نفسه في مجال آخر من مجالات النشاط الهامة والعادية ، ليس فحسب مرميا بالعجز ، وإنما معزولا ضمن فئة الجهلة والأغباء .

وحيث إن جمهرة القادرين على الكتابة والقراءة في الولايات المتحدة تضم كل شخص سوى مبصر فوق سن السابعة أو الثامنة ، فإن فقدان القدرة على الاتصال عن طريق الكلمة المكتوبة هو أكثر خطراً بكثير مما يبدو عليه للنظرة الأولى . وكثير من المخترعات الحديثة في أيامنا قد عملت على التهيؤ من هذا فقدان (وإن كان انتشار التلفزيون يبدو تدعيماً وإبرازاً لهذا فقدان) . وعلى الرغم من ذلك ، فإن هذا فقدان يظل إعاقة رئيسية — بمثابة نوع من الموت لقدرتنا على الاتصال عطاء وأخذاً عن طريق الكلمة المكتوبة .

٩ - فقدان السهولة في مجال الاتصال عن طريق الكلمة المنطوقة :

هذا فقدان لا يقتصر فحسب على الإصغاء والنطق ، وإنما يشمل أيضاً الحركة التعبيرية والوضع البدني والإيماءات والإشارات وأساليب التصنع وتعبيرات الوجه — وكل العناصر غير المنطوقة في مجال الاتصال عن طريق « الكلمة المنطوقة » . ومع ذلك ، فإن هذا فقدان ، على العكس من سابقه ، يندرز الحديث عنه ، ومن ثم يندر بشكل واضح الاعتراف به . إن التمييز الساذج غالباً ما يتم . على أن الصمم يقطع صاحبه عن عالم الناس ، في حين يقطع العمى صاحبه عن عالم الأشياء ، ولكن فقدان السهولة في مجال الاتصال عن طريق الكلمة المنطوقة هو مظهر من مظاهر العمى يميل (حتى بصرف النظر عن الحواجز النفسية التي يقيمها) إلى أن يقطع الأعمى الأعشى بعيداً عن عالم الناس أيضاً .

وحتى في الجانب الصوتي من الحديث يعاني الأعمى نوعاً من الإعاقة مع العمى ، فكل واحد منا سيان تنبه إلى ذلك أم لم يتنبه ، هو بدرجة ما قارئ شفاه . وعند ما نصغي فإننا ندرك بعض الكلمات بأذاننا ولكن بعضها الآخر نراه جزئياً . ولو أن شفاه المتكلم حجبت عن رؤيتنا ، لتحتم علينا أن نزيد من تركيزنا لنفسك بكلماته .

ولكن الكلمات ليست غير جانب واحد من جوانب الحديث فالتعبير .
الوجهي الذي يصاحب قولاً ما لقادر على أن يغير من معنى القول تماماً .
وكما أن الابتسامة يمكن أن تحيل عبارة التجريح إلى مديح فإن الابتسامة
أيضاً في صورة أخرى لها يمكن أن تحيل عبارة المديح إلى عبارة تجريح .
والشخص الذي لا يستطيع أن يرى التغيرات التي تطرأ على تعبيرات
الوجه يمكن أن يسيء تماماً فهم المعنى الذي يقصده المتكلم ، ومن ثم نخدعه
الكلمات العادية ، الكلمات « الصوتية » .

والحركات التعبيرية التي تصاحب عبارات « هناك بعيداً » أو « كبير
بشكل » أو « طويل هكذا » كثيراً ما تستخدم في الحديث العادي بدلالات
مختلفة . والفك البارز الذي يصحب عند الراوي كلماته التي يصف بها الجرم
لا يعد جانباً هاماً من أحداث القصة ، ولكنه ينتمي مع ذلك إلى السياق
الكل لموقف الحديث ، والأعمى لا يستطيع الإمساك بذلك .

ولكن أكثر من هذا أهمية هزة الكتفين ومط الحاجبين ، وشمخة
الرأس التي هي في ذاتها كلمات وعبارات ، بل وأحياناً تزيد في أهميتها على
الكلمات المنطوقة .

وهناك عجز الأعمى عن أن يحدد تحديداً أكيداً مصدر الصوت ،
مكان الشخص الذي يتحدث مما يجعل التحقق من شخصية المتحدث
مسألة عسيرة تعوق الحديث في حالة عديد من الأشخاص . وأكثر
من هذا عسراً بالنسبة للأعمى أن يتبين الوجهة التي يتجه إليها صوت
المتحدث . « أهو يتحدث إلىّ أنا ؟ » سؤال يفرض نفسه دائماً
على الأعمى ولا يملك من وسيلة يتبين بها هل هو الشخص المقصود
بالحديث أم لا ؟

هذا إلى أن الحديث ، وبخاصة حين يجري بين الأصدقاء ، وغالباً ما

يتسم في جانبه الأكبر على أرضية من الصمت ، ولا يجد الأعمى قدرته السابقة على أن يتفهم دلالة هذا الصمت أو ذاك ، فإنه لا يرى التعبيرات الوجهية والحركات الإيمائية المصاحبة لكل صمت ، وبدلاً من أن يسلم الكفيف نفسه إلى تأملات هادئة ناعمة فإنه عادة ما يكون في حالة عصبية يسائل فيها نفسه عما إذا كان صمت الآخرين هو توقعاً منهم وانتظاراً لشيء يقوله ؟ أترأه بعدم حديثه قد خيب التوقع ، فوضع الآخر في موقف حرج أو مهين ؟ وهناك دائماً احتمال أن يكون هذا الصمت مجرد ترجمة عن مغادرة الشخص المبصر الغرفة في هدوء لا يسمح لغير المبصر أن يتبينه .

وأسوأ الاحتمالات كلها هذا الاحتمال الشنيع الذى يستحيل على الكفيف أن يغفره ، ويعنى احتمال أن يكون هناك حديث آخر يدور من حوله وليس له أن يشترك فيه . « يدور » بالإشارات والإيماءات والحركات ما بين المبصرين حول عماء ، ولكن من النادر أن يحدث هذا اللهم إلا في صورة التعاطف . وفي بعض الأحيان يصدر هذا السلوك عن أسرة الأعمى نفسها ، وأسوأ من ذلك أن يصدر عن أشخاص يعملون في خدمة العميان ولكن كائنة ما كانت الدوافع التى تكمن وراء هذا السلوك ، فإنها تنطوى على انعدام الثقة بالأعمى ، هذا إلى أنها ترينا العلة فى أن يكون الأعمى بدوره قليل الثقة لصراحة وإخلاص الناس من حوله .

والكلمات التى ينطق بها الأعمى تتعرض هى الأخرى بفعل العمى لكثير من الإعاقة ، وإن لم يكن هناك أى تغير طرأ على صوته . فكثيراً من العوامل التى سبقت الإشارة إليها تلعب هنا دورها بوضوح . فالأعمى لا يكون دائماً على ثقة من أن الشخص الذى يتجه إليه بحديثه لا يزال فى الغرفة ، أو لا يزال فى نفس المكان الذى كان فيه من الغرفة ، ومن هنا يميل الأعمى إلى أن يتخذ لنفسه هذا الذى يسميه كتسفورت « الصوت

«إلذاعي» ، وهو الصوت الذي لا يتجه إلى شخص بعينه ، وإنما يحاول
(كصوت المذيع) أن يغطي الغرفة كلها ليقع على الشخص المقصود كائنًا
ما كان مكانه .

وثمة عامل هام في أحاديثنا ألا وهو استجابة الآخرين لما نقوله ؛ ففي
الحالات العادية عندما نبدأ الحديث عن موضوع ما ، نحن لا نعرف
الكلمات التي سنستخدمها في هذا الحديث ، لا ولا نوع التوكيدات المصاحبة ،
صوتية كانت أم تعبيرات وجهية . فالسياق الكلي للحديث يمتد في
تجاوب مع استجابات خافية علينا ؛ لأننا لا نستطيع أن نراها ، فإن
حديثنا يتعرض إلى حد كبير للإعاقة والمقاطعة .

والحركات التعبيرية هي كما رأينا جزء من الحديث ، (وحتى في بعض
الشعوب التي تعتقد أن الأجانب وحدهم هم الذين تصدر عنهم مثل هذه
الحركات) وغالبا ما يفشل العميان ، حتى متأخرو العمى منهم ، في
إتيان كثير من الحركات التعبيرية اليدوية والبدنية العادية التي تصاحب
الأحاديث اليومية . فإتيان هذه الحركات يمكن أن ينطوي على حرج
الاصطدام بمنضدة أو مصباح قريب . هذا إلى أن الأعمى يميل بصفة طبيعية
إلى أن يهتم بالجوانب الصوتية من الحديث بأكثر مما يفعل بجوانبه البصرية ؛
وهكذا فإن الحركات التعبيرية التي لا يزال يأتيها العميان تميل إلى أن
تكون حركات واعية لا آلية مصاحبة ، وهذه الحركات الواعية تنال من
الحديث بأكثر مما يفعل انعدامها .

وهذا فقدان للحركات التعبيرية لا ينتبه إليه الشخص المبصر العادي .
ولكن الذي ينتبه إليه هو أن هناك « اختلافاً » يحسه في الطريقة التي يتكلم
بها الأعمى . سينصرف وهو يحس « بشيء ناقص » ، وهذا الغموض
حول الشيء الناقص من شأنه أن يعوق بشكل أخطر « سوية » الحديث ،
وفي هذا ما يجعل هذا فقدان أكثر أهمية .

ومما يعد أكثر إزعاجاً لسوية الحديث العادى فقدان الأعمى للتعبيرات الوجهية مع إحلال « وداعة » الملامح والابتسامة الصماء فى مكانها . وينتج ذلك جزئياً من عجز الأعمى عن رؤية التعبيرات الوجهية للآخرين ، مما يترتب عليه إفقار الذكريات البصرية فيما يتعلق بالجنات الدقيقة المرهقة من التعبير . ويبدو أن جانباً كبيراً من تعبيراتنا الوجهية ليس غير « انعكاس مرآتى » للتعبيرات عند الناس من حولنا ، ومن ثم فليست هناك غرابة فى أن تتوقف عملية « الانعكاس المرآتى » عندما تختفى المرأة :

ومن الممكن أيضاً أن يكون ذلك جزئياً راجعاً إلى أن تعبيراتنا الوجهية تتباين فى تجاوب مع استجابات الآخرين لما نقوله . وحيث إن الأعمى لا يستطيع أن يتبين هذه الاستجابات وهو يمضى فى حديثه . فن الممكن بشكل لا شعورى أن يتخذ وجهه « التعبير الميت » المألوف حتى يتبين اتجاه المرء منه تقبلاً أو رفضاً .

وثمة أسباب تحمل على الاعتقاد بأن الابتسامة الصماء ليست غير ملامح محترف البوكر ، وغير قناع يتخذه بشكل لا شعورى ليخفى مشاعره الحقيقية الدفينة . وأى شخص استطاع أن يتبين مدى التحسن أو التراء الذى يطرأ على التعبيرات الوجهية للأعمى عندما يمس أعماق مشاعره الخاصة ، على نحو ما يحدث خلال جلسات التحليل النفسى ، إنما يجد نفسه مضطراً إلى الاعتقاد بصحة مثل هذا التفسير . وثمة حاجة إلى نوع ما من القناع تفرض نفسها غالباً بالنسبة إلى هذا النفر من العميان الذى غالباً ما يكون بمنأى عن الأحاديث ، غارقاً فى لجج أحلام اليقظة التى تتصل بمشكلاته الشخصية .

وهذه التعبيرات وغيرها من التعبيرات ، العادات والإيماءات التعبيرية مما يدخل تحت عنوان « العميانيات » بمعنى لازمات العمى ، إنما تعوق العلاقات الاجتماعية العادية مقيمة فى مجال الاتصال بالآخرين حاجزاً حقيقياً .

ويصدق هذا بصفة خاصة من حيث عجز الكفيف بالطبع عن تركيز النظرة ، أو من حيث اتجاه المقلتين إلى الورا في حركة زائفة تزيد بياض العينين اتساعاً وضيقاً يبدو بالنسبة إلى الكثيرين منظرأ مربعاً . ويمكن لهذه الصعوبات كلها أن تتخذ أبعاداً جسيمة عندما يتجه الأعمى بحديثه إلى جمهور من الناس . فمن الممكن مثلاً أن يتجه بحديثه وجهة مائلة لا تضعه في قبالة الجمهور ، لأنه لا يعرف حدودهم على التحديد . ومن ثم يفصم تماماً الصلة ما بينه وبينهم ، مقيماً عقبة كأداء أمام نفاذ كلماته إليهم .

ومشكلة أخرى بالنسبة للتحدث إلى الجماهير هي صعوبة الحديث إليهم . في نفس الوقت الذي يقرأ فيه ما يقوله ؛ فقليل هم العميان من المتحدثين إلى الجماهير الذين يجيدون قراءة « البراي » بحيث يقتلدون على القراءة السريعة الأنيفة من فوق المنصة . ولقد وجدت هذه المشكلة حلاً جزئياً ، في اجتماع عالمي بباريس عندما استعان محدث كندى أعمى بسماعة صغيرة تنقل إلى أذنيه صوت زوجته ، وهي تقرأ له من مكان بعيد عن المنصة حديثه المطبوع ، ولكن في ذلك ما يعوق تنبهه إلى استجابات الجمهور .

وعليه ففقدان السهولة في مجال الاتصال عن طريق الكلمة المنطوقة إنما هو هذا الفقدان من فقدانات العمى الذي يشبه عند الأصم فقدان الاتصال الشخصي . فالأعمى الذي يتحدث هو في الواقع « أصم » بمعنى ما بالنسبة إلى صوته ؛ وذلك لأنه أصم لا يدرك استجابات الآخرين لحديثه – وأكثر من هذا كله خطراً ، ووراء كل هذه الصعوبات ، ذلك الفقدان المروع « للجانب الوجداني » من الاتصال – ذلك الفقدان لهذا الشيء الآخر الذي يزيد على الكلمات ويرتفع عليها والذي يسرى من شخص إلى آخر بل من روح إلى روح ، إن العميان يسمعون الكلمات وينطقونها ولكن الغالب على وجه الحملة أن تكون هذه الكلمات عارية عن الشخصية التي تضيئ عليها الحياة وتتيح لها « الامتلاء » .

وهكذا فإن هذا الفقدان هو الآخر يعد فقداناً رئيسياً بين فقدانات العمى العديدة . إنه موت آخر للعالم الذى كان العمى يعيش فيه ، موتة أصدقائه ومعارفه .

١٠ - فقدان المعلومات الدافقة

يمكن إطلاق أسماء عديدة على هذا الفقدان ، فقدان الوعى بالمرشح الاجتماعى ، فقدان اطراد المعلومات ، فقدان القدرة على أن « يكون فى الصورة » ، فقدان الصلة بالأحداث الجارية . إنه فقدان التقدم ، بينما الأشياء الأخرى فى اطراد ، فإنه وقفة ، بينما العالم يسرع الخطى ، إنه فى الواقع حركة إلى الوراء ؛ ذلك أنه يضع العمى بعيداً بعيداً وراء الموقع الذى كان يحتله .

وينتج هذا الفقدان مما يعانيه العمى من إعاقة شديدة فى الوسائل التى تمكنه من أن يبلغ هذا المنظور المعرفى الذى كان له أيام الإبصار ، ومن أن يبلغ إلى معرفة الأحداث الجارية هذه التى كانت تعينه على أن يحفظ لنفسه مكانتها فى محيط الأصدقاء والجيران والزملاء ممن يشكلون « محيطه الفكرى » . ويختلف مضمون هذا الفقدان اختلافاً كبيراً من شخص إلى آخر . ففى جماعة ما يمكن أن ينصب على التعليقات الجارية حول النزعة الاجتماعية لمؤلف موسيقى ظهر حديثاً أو حول « التقاليع » فى صالون أحد الفلاسفة . وفى جماعة أخرى يمكن أن يكون المضمون تحقيقاً صحفياً عن شخصية رياضية احتلت القمة حديثاً أو نتائج « الجرانند ناسيونال Grand National » .

ومن الزاوية المهنية يمكن أن يكون المضمون اكتشافات جديدة فى ميدان الطاقة الذرية ، أو حالة البورصة ، أو بحثاً عن فيروس معين ، أو من الممكن أن يتعلق بزيادة الأجور والضمان عن طريق إقامة اتحاد جديد أو الوظائف المطلوبة لمشروع صناعى أنشئ حديثاً .

والمعلومات الدافقة المطردة يمكن أن تقتصر فحسب على أمور من قبيل كتيبات المسلسلات الهزلية ، وأخبار كواكب السينما ونتائج مباريات الكرة ،

الشخصيات في جريمة قتل كبرى ، فضائح في الحياة الخاصة أو فضائح عامة ، الزايا المختلفة للأنواع المتعددة من دهانات الشعر ، تصميم آخر طريق عمومي تم إنشاؤه ، أو أحدث طراز من السيارات .

فالمضمون يختلف من جماعة إلى جماعة ، ولكن بالنسبة إلى الأعمى في أى جماعة من هذه الجماعات فإنه يفقد وسائل المضي وإمكانية مسابقة ما يحدث . وهذا لا يعنى « أنه توقف في مكانه » . وإنما يعنى التقهقر إلى الوراء لأنه توقف على حين يمضى العالم إلى أمام . ومن الممكن بالطبع أن يستمر الأعمى في تحصيل المعلومات الجديدة ولكن التدفق البصرى يصيبه العجز . ومن ثم يضيق المجرى وتغلب الضحالة على المعلومات الدافقة ؛ ذلك أن اطراد النمو هنا يتوقف إلى حد كبير على عاملين : « القراءة » و « ملاحظة » الناس والأشياء .

أما عن نوع القراءة فيمكن أن يكون أى شكل من الأشكال التى عرضنا لها ، فى الجزء الخاص بالاتصال عن طريق المكتوب ، ومن الواضح أنه فى أية حالة من الحالات تعد القراءة أكثر صعوبة بكثير إن لم تكن مستحيلة . وأما ملاحظة الناس الذين يعنونه فهى ليست بالضرورة ملاحظة بصرية ، ومع ذلك فإن الذين نشأوا منا تحت راية الإبصار يعرفون مدى عظم الدور الذى يلعبه البصر فى ملاحظتنا للناس ، ويزداد الدور الذى يضطلع به البصر فى ملاحظتنا للأشياء . وبفقدان القدرة على التحرك تتحدد إمكانية الملاحظة عند الكفيف منكمشة داخل منظمة جغرافية صغيرة .

فالأعمى الذى لا يزال يقص شعره « بتسريحة عام ١٩١٠ » من المحتمل أنه يفعل ذلك لعجزه فى مجال معلومات الحياة الدافقة ، أو أن المرأة الكفيفة ، للسبب نفسه لا تشاطر جاراتها ما يعرفنه من انهيار منزل فى نفس الشارع . فصعوبة الأعمى تنسحب على مختلف مجالات الحياة اليومية فى ملاحظته للناس العاديين والأشياء العادية .

ويعانى الأعمى أيضاً من نقص فى الفرص التى تتيح اكتساب خبرات جديدة ومعلومات عن الأحداث المبينة فى جداول والتى تحدد ميعادها من قبل - أسماء الفريقين فى مباراة الكرة القادمة ، إعلان عن مسرحية ، أوزان الملاكمين فى مباراة الليلة ، موعد حفلة الأوبرا أو الكونشرتو ، نداء بخصوص تجربة غارة جوية أو قرب وقوع عاصفة ، ونقص هذه المعلومات يمكن أن يكلف الأعمى غالباً فى مجال ما من مجالات الحياة .

ولكن النقص فى الوسائل التى تتيح له أن يحصل على معلومات الحياة الجارية إنما تكلفه أغلى مما تكلفه هذه المكانة التى له فى نفسه عن نفسه والتى له فى محيط أصدقائه وزملائه ، فما الذى سينال مكانته بينهم وهو يقدم (أو يشعر بأنه يقدم) إليهم أقل فأقل مما كان يقدمه ؟ إن المعلومات هى الخامة التى تصنع منها المعرفة ، ويميل الناس إلى الخلط ما بين نقص المعرفة ونقص الذكاء . ومن هنا فمن الممكن أن يشرع زملاؤه فى النظر إلى نقص المعلومات عن الحياة الجارية على أنه غباء . وقد لا يحتاج الأمر إلى وقت طويل حتى تصل به الحال إلى أن ينظر هو إلى نفسه على أنه غبي .

ولأنه لمن اليسير أن نفهم الآثار التى يخلفها عند الأعمى تبينه لما نتج عن هذا « الموت » ، موت العالم الذى يعيش فيه « من الممكن أن يستسلم إلى عالم الماضى ، من الممكن أن يتحول إلى « أخصائى » فى موضوع من الموضوعات ينطلق فى الكلام عنه بمجرد أن يعيره أحد الناس أذنيه ، ومن الممكن أن ينصب نفسه خطيباً يتحدث فى حماسة عن أمور لا يعرف شيئاً عنها ، ومن الممكن أن يتوقف تماماً فى نمو الفكرى مجمداً عقله فى وجه كل جديد من الآراء متشبهاً فحسب بالأمور التى يعرف عنها ، هذا ما لم يتم عمل شئ يعرضه عن فقدانه فى هذا المجال الحيوى ، مجال مواكبة العالم المتغير .

الفصل الخامس

فقدانات التعميمات (التقديرات)

١١ - فقدان الادراك البصرى للसार

يتحتم علينا فى دراسة هذا الفقدان أن ننبه إلى الاختلاف الصارخ ما بين اتجاه المبصرين ، أو على الأقل الصورة اللفظية التى تجسد هذا الاتجاه إزاء هذه الجنبات من العمى وبين اتجاه العميان ممن فقدوا بصرهم . فعندما يتحدث المبصرون أو يكتبون عن العمى فكثيراً ما يذكرون أشياء من قبيل : « لن يقع نظره مرة أخرى على وجه أمه - ولن يرى بيته بين أحضان الأشجار » . ومع ذلك فقلما يذكر العميان شيئاً من هذا القبيل .

وثمة تفسيرات كثيرة لعجز العميان عن مناقشة هذا الفقدان فى شيء من العمق . ولكن إذا توهم أن هذا إنما يرجع إلى عدم أهمية هذا الفقدان ، فحسبه أن يتأمل هذه العبارات التى صدرت عن أشخاص استعادوا أبصارهم بعد سنوات من العمى . قالوا بشكل ما المرة تلو المرة : « كان أروع شيء أننى استطعت أن أرى من جديد زوجتى وأولادى » أو « كانت أعظم لحظة عندما انعطفت فى شارعنا ، ولأول مرة منذ سنوات رأيت البيت الذى عشت فيه كل هذا العمر » . أفى هذا ما يوحى بعدم أهمية هذا الفقدان ؟ على العكس من ذلك ، إذا كان الفقدان من الضخامة بحيث كان من المستحيل أن يتحدث عنه .

إن الفقدان الذى نتناوله هاهنا بالتحليل إنما هو فقدان الاستقبال البصرى (الاحتواء ، الاحتضان) لشيء كان يعتبره الأعمى فيما مضى ساراً . ومن الممكن أن يكون هذا الشيء لوحة زيتية فى غرفته يستحضر على أى خيال مهما شطح أن يجدها « جميلة » • ومن الممكن أن يكون قطعة من الفن

الدينى « ليس لقبجها من آخر — اللهم إلا بالنسبة إليه لأنها ترمز إلى شيء يحبه ». ومن الممكن أن يكون هذا الشيء تاء « الابتسامة التي ترتسم على وجه أمه » حتى وإن كان هذا الوجه أكثر الوجوه بساطة وسذاجة فى الحى كله ، ومن الممكن أن يكون هذا الشيء « بيته القابع بين أحضان الشجر » حتى وإن كان البيت مسخاً معمارياً ، فإنه بالنسبة إليه أعظم المنازل منزلة فى المنطقة كلها . إن الحسن الذى ترمز إليه هذه الأشياء هو ما كان يسره عندما كان ينظر إلى هذه الأشياء فيما مضى — وهذا النوع من السرور هو الذى يفتقده الآن .

والشيء السارّ بهذا المعنى يمكن أيضاً أن يكون .. انسياب المرور فى المدينة ، الانطلاقة الخاطفة لأحدث طراز من السيارات ، حركة المارة فى الطريق القريب ، مسيرة الخراف ، منظر واجهة من واجهات العرض ، رشاقة أرنب يجرى أو حصان أصيل . وفى أية حالة من هذه الحالات تتحدد شدة الشعور بالفقدان تبعاً لما كانت عليه فيما مضى درجة سرور الفرد عند النظر إلى هذه الأشياء .

وهذا السرور المفقود يمكن أيضاً أن يكون هو النوع المألوف حيث يتداخل ما « هو حسى » وما هو روحى^(١) : نظر رجل أنيق بالنسبة إلى

(١) ما هو « شبقى » وما هو « فنى » يمكن استخدامهما هنا بديلين للإشارة إلى ما قصده ، ولكن هذين المصطلحين يؤديان إلى صعوبات عديدة من حيث المضمون والدلالة . فثمة شعور يستشعره الكائن البشرى بكلية عند ما يلتقى بكائن بشرى آخر ، وهو سرور يتعلق جزئياً بجانبه البدنى وجزئياً بجانبه الروحى ، إنه سرور « بشرى » ، وهذا ينبغي تمييزه تمييزاً قاطعاً عن سرور الخليفة حيث يهيم جانب واحد من الكائن البشرى وحيث السرور شهوى جسمى . والشاب السوى والشابة السوية ينبغي فى الحالات العادية أن يستشعرا الواحد منهما السرور عندما يلتقى بفرد من الجنس الآخر . هذا السرور العادى يرجع فى بعضه إلى « رؤية » هذا الآخر . وفقدان هذا السرور العادى فى موكب فقدان البصر لهو من الأهمية بحيث يستحق إلحاحاً فى الاهتمام . ومن ناحية أخرى فإن إغفال هذا التمييز الهام يمكن أن يؤدى إلى استنتاجات زائفة خطيرة لا يقصد إليها النص .

امرأة أو مشهد امرأة فاتنة بالنسبة إلى رجل كما يمكن أن ينتمى هذا السرور المفقود إلى مجال الخطيئة والانحراف حيث تهيمن الإشباعات الشبقية في ضراوة^(١) .

ومن الممكن راجعين مرة أخرى إلى الموضوعات السارة العادية والتي هي بصورة عامة بعيدة عن الخطيئة — أن يكون هذا الشيء السار هو شخص الفرد نفسه . فالسرور البريء والأحق بعض الشيء الذى يستشعره كثير من الناس عند النظر إلى المرأة قد ولّى بالعمى .

وثمة سرور أمعن — حتى بغير امرأة — سرور الإحساس البصرى عند الشخص بصورته البدنية ، وهو إحساس يظل في معظمه غير شعورى بالنسبة إلينا ، وإن كان من المحتمل أنه صاحبنا منذ اليوم الذى قمنا فيه بالكشف العظيم فأدركنا أن الأصابع الدقيقة للقدم عند نهاية المهد إنما هي أصابعنا — هذا الإحساس البصرى والسرور شبه الشعورى الذى صاحبه قد انتهيا ، وهذا الفقدان يمكن أن يدخل تحت فقدان الإدراكات البصرية للأشياء السارة .

وقد يميل البعض إلى أن يدخل هنا أيضاً فقدان السرور في جهاز الاستقبال البصرى ، ولكنى لا أعتقد بوجود مثل هذا السرور في حاسة الإبصار أو حاسة السمع .

(١) من الواضح أننى لا أقصد هنا القول بأن فقدان القدرة على إثبات الخطيئة شيء يستحق الأسى والحزن . لفقدان حاسة لا يستتبع فقدان القدرة على إثبات الخطيئة : فإن فقدان الإدراكات البصرية لهذه الأشياء لا يستطيع من حيث هو كذلك أن يتمخض عن أى تأثير بحيث يجعل الأعمى أكثر سوية أو أقل خطيئة في مسرائه . فستظل الخطيئة متاحة بالنسبة إليه — هذا النوع من الخطيئة الذى يستند إلى التخيلات البصرية يصير ممكنًا في العقل . في هذه الحالة يكون فقدان الشيء السار هو فقدان الموضوع الذى يبعث سرور الخطيئة — ومن ثم ينتج الألم .

ومهمتنا هي أن نزيل الألم دون أن نشيد من جديد صرح الخطيئة .

ومع ذلك فإنه يتحتم علينا هنا أن نضع في اعتبارنا فقدان السرور المباشر للحاسة الذى نستشعره جميعاً فى بعض الأحيان أمام اللون أو الشكل أو الحركة . وهذا اللون الخاص من السرور يتعلق ليس فحسب بالاستجابات الانفعالية العادية البسيطة ، وإنما أيضاً بالانفعالات المترابطة - نفعالات ترتبط منذ أبكر ذكرياتنا بالشكل واللون والحركة خاصة باللون . وانفعالات ترتبط بتعلمنا الحكم عليها ومعرفة قيمتها أو ترتبط بعملية «تثريتنا» تجنباً لها أو هرباً منها .

فقدان الإدراك البصرى للجميل

هذا الفقدان هو فقدان الاحتضان البصرى للشيء الجميل ، فقدان الاستقبال البصرى ، فقدان (المذاق البصرى) للجميل ، وليس كل كفيف يستشعر هذا الفقدان النوعى ؛ فالبعض يستحيل عليه أن يعانى (موتة) الجمال البصرى ؛ لأنه لم يعيش قط هذا الجمال البصرى . أما الذين يعانون هذه الموتة فإنهم يعيشون ولا شك ، آلام هذه الموتة النوعية من حيث هى موتة من أقسى أنواع الموت التى يلبسها العمى .

فالآن ، كل الجمال الذى عاشوه يوماً عبر الابصار ، وكل السرور الذى كان يتلظى ويتحرق فى حضرة الجمال الجميل ، قد انقطع وانتهى . وحين يقف الآن أمام كائن جميل بكل ما فى الجمال من إرهاف وبكل ما للجمال من جلالة ، ويعرف أن هذا الكائن هنا أمامه ، ومع ذلك فلا سبيل إلى تأمله ؛ فذلك ألم فريد فى نوعه ، ألم بغير سرور ، سرور التحرق والظى . وإنما هو ألم محض وإحباط مروع . ولأن تقف وقفة العاجز ، ويجاهد آخر فى حلقة ليصف هذا الجمال ، يجاهد كما يمسك به وينقله إليك فى كلماته البلهاء - فذلك حقاً ما يبعث على الأسى .

وغالباً ما يتحدث المبصرون عن هذا الفقدان - حتى بأكثر مما يتحدثون

عن سابقه : « لن يرى تلك الحمرة القرنفلية للورد ، ولا سيمفونية الألوان عند غروب الشمس » .

والعميان يذكرون ذلك ولكن نادراً .

ذلك اختلاف يستلفت النظر ، وإن كان من الصعب أن نقطع فيه برأى . فمن الممكن بالنسبة إلى المبصرين أن يكون هذا فقدان أيسر من الفقدانات الأخرى في الحديث عنه ، ومن الممكن أن يكون في الحديث عنه ما يوفر عليهم مشقة التأمل في الجنبات الأخرى للعمى والتي يكرهون التفكير فيها . أو لعل هذا فقدان قد لقي من اهتمام الكتاب والكتابات ما أقر في أذهان المبصرين (حتمية) الانتباه إليه والتعليق عليه . ولكن لماذا يذكر العميان ذلك نادراً ؟ أترى أن فقدان غير هام بالنسبة إليهم ؟ ربما يشعرون أنه أمر من الواضح بحيث لا حاجة إلى ذكره . ومن الممكن أن تكون هناك فقدانات أخرى تغطي عليه ، ومن ثم تكون لها الأسبقية . ومن الممكن أن يكون هذا فقدان في قسوته أكثر من أن يحتمل . ولكن أقرب الإمكانيات إلى الصحة هي أن المرارة الحقيقية لهذا فقدان إنما يعانها فحسب هذا نفر من الناس الذى يشتد عندهم حب الجمال . وإنهم يعانون هذه المرارة بدرجة أقل في بعض الأحيان عنها في أحيان أخرى . هذا إلى أن هذا فقدان إنما هو من القوة والارتباط الوثيق بالقلب بحيث يكون الحديث عنه في كلمات غير الكلمات التي تنبغى له ومع الناس غير الذين ينبغون له بمثابة إهدار لقدره وتلطيح لدلالته . ومثل هذا الحديث أسوأ من عدمه .

ولكن ، كائنا ما كان السبب ، فليس هناك من شك في أن هذا فقدان خطير ويتحدد بدرجة خطرة تبعاً لما كان عليه إدراك الشخص وتقديره للجمال البصرى قبل العمى . وبالتالي يمكن أن يكون فقداناً جد خطيراً بالنسبة إلى البعض .

الفصل السادس

فقدانات في مجالات الاهتمام والوضع المالى

١٣ - فقدان الترويح

الترويح هو تجديد وإحياء وبعث حياة جديدة ، وخاصة بعد العمل . الكادح الشاق أو القلق . والترويح فى صورة أو أخرى هام لكل شخص . وعلى الأخص بالنسبة للذين يكونون واقعين تحت ضغط شديد . ومع ذلك فى زحمة العمى الحديث العهد بكل ما يأتى به من ضغوط وتوترات ، يفقد الأعمى أيضاً الترويح ، وكائنات ما كانت وجهة النظر فذلك فقدان رئيسى .

ويختلف الترويح اختلافاً كبيراً تبعاً لمطالب الأفراد وأمزجتهم وعاداتهم . بحيث يعد من المستحيل تصنيف كل أشكاله فى قائمة : ولكن قد يكون من المفيد أن نعرض فى سرعة لأكثر مجالاته شيوعاً فى الثقافة الأمريكية ، وذلك حتى نتبين كيف أن كثرة منها قد تعرضت للإعاقة بفقدان البصر .

إن الترويح بالنسبة إلى غالبية الناس إما عقلى وإما بدنى وإما مزاج من الأمور . وبالنسبة للبعض تأتى القراءة الترويحية فى الطليعة أو النقاش فيما تمت قراءته . وبالنسبة إلى البعض الآخر نجد الذهاب للسينما ، أو إلى المسارح أو لعب الورق أو « الداما » أو الشطرنج . وبالنسبة إلى آخرين يعنى الترويح كل ما يتصل بالحديث والناس ، ومن الممكن أن يكون مشاهدة التلفزيون أو مداومة الحضور لمباريات نوع ما من أنواع الرياضة ، أو تناول الطعام خارج البيت - وجوه جديدة - أماكن جديدة - أطعمة جديدة ، لذة قيادة

السيارات أو لذة ركوبها ، هوايات ، جمع طوابع البريد أو أشياء بكل أشكالها أو مزاولة التجارة في غرفة الخزين ، ممارسة هواية الرسم . وهناك الترويح الذى يتطلب جهداً بدنياً أكبر « الرياضة البدنية » ، السير في الغابات ، و « الحركات السريعة » في كرة اليد ، الملاكمة ، أو التنس ، أو الجولف أو القنص وصيد السمك وقوارب الإبحار وركوب الخيل ، إلى آخر هذه النشاطات التي تجعل الشخص « يشعر أنه رجل جديد » . والعمى المفاجئ ينهى أو يعوق أو يذهب بكل لذة ترتبط بممارسة كل هذه النشاطات . وعادة ما يكون النظر إلى الموسيقى على أنها الشكل الشائع على الإطلاق للترويح بالنسبة للأعمى . ومع ذلك فالأعمى الذى يعزف الموسيقى - لاعب البيانو أو نافخ الورق ، أو العازف على الآلات الوترية - إنما يجد الآن شعوره بالاستمتاع وقد تضاعف أو تلاثى ، وذلك إن كان يعتمد جزئياً أو كلياً على الموسيقى المطبوعة . صحيح أن الشخص الذى كان يجد لذته في مجرد الاستماع إلى الموسيقى فإنه يستطيع أن يتابع هذا اللون من الترويح بنفس الطريقة السابقة تقريباً ، أما إذا كان استماعه في الماضي يتم خارج البيت في أماكن لم يعد بوسعه الآن أن يذهب إليها أو لا يستطيع أن يكون فيها ، « على راحته » فهنا يتعرض الترويح للإعاقة .

وكأننا ما كانت في الماضي أشكال الترويح ، وسيان أكانت منتظمة أم عارضة ، وسيان كانت تحتل جانباً كبيراً من حياته أو تقتصر على العطلة الأسبوعية أو الإجازة السنوية ، فإن فقدانها مع العمى يمكن أن يثير الاضطراب الشامل لأسلوب حياته كله ولحياته الانفعالية وصحته البدنية . وإن كان الاشتراك في رياضة من الرياضيات شيئاً هاماً بالنسبة إلى الشخص الذى ينتمى إلى نفس جماعة عمره ، فإن عجز الأعمى عن الاشتراك وانعزاله إنما يولد فيه مشاعر قوية من الإحباط بل ويوقظ فيه مشاعر الريبة في رجولته .

إن الأعمى محروم حتى من هذا الشيء جد الهام بالنسبة إلى الذين يمارسون الرياضة كمجرد هواية - مكافأة الاستحسان عند إتقان اللعب .

ومن الممكن أن يكون الترويح بالنسبة للأعمى في ماضيه فسيحا ينطوى على مجالات مختلفة كثيرة . وربما كان يجد في الترويح وسيلته الوحيدة للهرب من إرهاق الحياة وملاها ، والآن اشتدت ولاشك وطأة الملل إن لم تكن أيضاً وطأة الإرهاق وما من مهرب ، وربما كان الترويح وسيلته الوحيدة للتنفيس عن مشاعره (من الكراهية والعلوانية) . أما الآن فلا حيلة له إزاء هذه المشاعر اللهم إلا أن يضطلع « بإزاحتها » إلى الذين من حوله أو يحبسها كظيمة في نفسه . وربما كان الترويح وسيلته الوحيدة التي يحتوى بها من أحلام اليقظة والتخيلات الشبية - أما الآن فقد فقد هذا الملاذ الذي كان يحتوى به . وربما كان الترويح فرصته الوحيدة التي تتيح له أن يتنافس مع الآخرين على قدم المساواة وما يتولد عن ذلك من إحساسه بمشاعر الاكتمال والصلاحية الاجتماعية ، والآن - وهو أحوج ما يكون إلى هذه الأشياء - فإنها ليست متاحة له .

إن فقدان الترويح إنما هو فقدان خطير - إنه « موت » يأتي على كل فرصة « للتجدد » وتجديد الحياة .

١٤ - فقدان المستقبل المهني والهدف المهني وفرص التوظيف

كل الذين يفقدون أبصارهم لا يجدون في ذلك بالضرورة ما ينهى مستقبلهم المهني . فإن خمسين في المائة منهم تقريباً إنما يفقدون أبصارهم بعد عامهم الخامس والستين ، ومن ثم فستقبلهم المهني ينتمى إلى الماضي ، أو أنه قد أوغل في الاستقرار بحيث يسهل عليهم الاستمرار . وبعض الذين يفقدون أبصارهم في بداية مستقبلهم المهني ، أو فيما يقرب من منتصفه تمكنهم طبيعة أعمالهم من استئنافها بغير ما توقف قصير - من قبيل المحامين والقضاة وموظفي الأجهزة التنفيذية في الأعمال والمشروعات والعاملين في شئون الأفراد ومن إليهم .

ومع ذلك فإن فقدان المستقبل المهني والهدف المهني وفرص التوظيف إنما هو فقدان هام بالنسبة إلى الغالبية وفقدان جد خطير بالنسبة إلى البعض ، وثمة اعتراف جزئى على الأقل بهذه الحقيقة فى أيامنا ، وإن كان هناك خلط فى أغلب الحالات ما بين مسألة التوظيف ومسألة الدخل والأمن المالى ، أو ما بينها وبين « إنهاكية العمل » .

فلئن يفقد المرء عملاً أو وظيفة - وبخاصة حين ترتبط بشغاف قلبه أو حين تكون حياته المقبلة كلها تتوقف عليها - ذلك ما يمكن أن يكون فى ذاته مأساة ، حتى بصرف النظر عن العمى . وحكايات الصحف عن أشخاص فى حالة انهيار عصبي ألقوا بأنفسهم من فوق الكوبرى أو من النافذة ، غالباً ما تشير إلى أن فقدان الوظيفة ، أو فشل المشروع ، أو انهيار المستقبل المهني هى التى تسببت فى المأساة .

وليس من شك فى أن فقدان العمل أو الوظيفة وانهيار المستقبل المهني يمكن أن تكون ضربة قاصمة ولكنها تتحدد فى كيفها وقسوتها تبعاً لما تكون عليه بالنسبة للشخص دلالة الهدف أو المستقبل المهني . ذلك أن الهدف المهني ، أو المستقبل المهني ، أو فرص التوظيف بأكثر مما هى حاجة إلى الدخل المالى من الوظيفة ، وبأكثر مما هى حاجة إلى الإنهاء فى العمل إنما تنطوى على دلالة عميقة وأهمية بالغة^(١) . فكل هذه الأمور ترتبط بكرامة

(١) إن التقاعد الإجبارى الذى نتحدث عنه هنا ينبغي تمييزه عن التقاعد بسبب السن عند ما ينتهى المسار المهني . وهناك معلومات شائعة عن الآثار البيئية التى يعانها البعض عند ما ترغمهم السن على التقاعد . ولكن الدراسات العلمية الحديثة قد كشفت عن أن التقاعد بسبب السن يمكن أن يكون مفيداً للشخص عند ما يكون قد تهيأ له ، ومن ثم يعمل على الامتداد لا الارتداد بأبعاد حياته .

الفرد وشرف المهنة أو المنصب ، وشرف العمل نفسه وللضغوط الاجتماعية والحاجة الخارجية والداخلية التي يستشعرها الشخص والتي تدفعه إلى أن يتصرف تبعاً لما يتوقعه الآخرون منه بالنظر إلى سنه ومقدرته وخبرته وبيئته .

وأهم ما يعنينا هنا هو أن وطأة هذا فقدان تختلف من شخص إلى شخص تبعاً لهذه العوامل كلها . ولكن بالنسبة إلى أي شخص يمارس عمله يكون فقدان الوظيفة والهدف المهني وانتهاء الحياة المهنية ، فقداناً تقاسياً في ذاته وينبغي النظر إليه على هذا النحو . فالموتة هنا « موتة » القدرة على النفع ، وحياة الإيجابية والقيمة .

١٥ - فقدان الأمن المالي

على الرغم من أن فقدان الوظيفة وفقدان الأمن المالي ليسا بالضرورة شيئاً واحداً ، فإن فقدان الوظيفة بالنسبة للشخص المتوسط يعني فقدان الدخل ، وقلة من الناس هي التي تملك من المدخرات ما يكفي لتأمين السقطة المفاجئة إلى حضيض العوز المالي والتبعية المالية^(١) وبالإضافة إلى فقدان الدخل بفقدان الوظيفة فإن العمى يمكن أن يتسبب في مصاعب مالية لأنه « يزيد من نفقات الشخص » .

والنفقات الإضافية التي تترتب على العمى يمكن تصنيفها في صنفين : نفقات تتصل بالمرض ، ونفقات ملازمة للعمى . والنفقات التي تتصل بالمرض يسهل معرفتها - تكاليف الإقامة بالمستشفى ، والعقاقير والأدوية

(١) ومع ذلك فليس هناك في الولايات المتحدة ضرورة تحم على الأعمى أن يلجأ إلى التسول كوسيلة للحياة . فالغالبية العظمى من العميان تستنكر في مرارة وجود المتسولين من العميان على قارعة الطريق . وفي كثير من أنحاء الولايات المتحدة تعمل جمعيات العميان وغيرها من المنظمات على إصدار تشريعات تحرم هذا العمل . ولقد أصبح ذلك بالفعل محظوراً في كثير من الولايات والمدن .

والعمليات الجراحية وتكاليف التمريض . وحتى في حالة ما يكون منطوق « الطب هو العمى النهائي الدائم الذى يستحيل على الشفاء ، فإن هذه النفقات تستمر في بعض الحالات فترة أطول بكثير مما نعتقد . ويتصل ذلك بالأقاويل والشائعات عن طبيب في مكان ما استطاع أن يحقق الشفاء في « نفس حالة العمى هذه » . وتأتى رحلة الأمل (ربما إلى مكان بعيد) ليعرض نفسه على الطبيب : ثم تكون العودة محملة بخيبة الأمل . وربما يتصل بالهمس الذى يدور عن اكتشاف جديد يحقق الشفاء وتمضى الأسابيع والشهور فيما يكلفه هذا الدواء الحديد . ومرة أخرى ترتفع راية اليأس ، ولا تحدث هذه الأمور لكل أعمى ، ولكنها على أية حال تحدث في الغالب .

وأما النفقات الملزمة للعمى فهى بصفة أساسية تلزم عن فقدان القدرة على التحرك ، وفقدان القدرة على الاتصال عن طريق الكلمة المكتوبة ، وفقدان فنيات الحياة اليومية .

فالشخص الذى فقد قدرته على الحركة أو تعرضت هذه القدرة عنده للإعاقة إنما يجد نفسه ملزماً بنفقات جديدة عندما يرغب في الانتقال من مكان إلى آخر . وحيث كان من الممكن في الماضي أن يسير على الأقدام فإنه يجد الآن أنه يتحتم عليه أن يركب . وحيث كان من الممكن في الماضي أن يستقل السيارة العامة ، أو « مترو » الأنفاق ، فإنه يجد الآن أنه يتحتم عليه أن يستقل سيارة أجرة ، وحيث كان في الماضي يستطيع أن يذهب بمفرده فإنه يجد الآن أنه يتحتم عليه أن يتخذ مصاحباً (وسيان يدفع للمصاحب أجره ، أو يتحمل فقط نفقاته ، فإن النفقات تتضخم) .

وفقدان القدرة على الاتصال عن طريق الكلمة المكتوبة معناه دفع أجر لقارئ . ومن ثم نفقات .

ويصدق الأمر نفسه على فنيات الحياة اليومية ؛ فالأعمى يتحتم عليه أن يشتري الخدمات . يتحتم عليه أن يشتري بصرأ ، وكلما زادت حاجته إلى الشراء زادت نفقاته . فالشخص الذي كان معتادا تناول الطعام في أحد مطاعم الخدمة الذاتية يجد نفسه الآن مرغما على أن يذهب إلى المطاعم الباهظة حيث يستطيع أن يجد الخدمة (ويدفع ثمنها) . والشخص الذي كان يتسوق ما يلزمه من سلع ومشتريات من متاجر الخدمة الذاتية يجد نفسه الآن مضطرا إلى أن يطلبها تليفونيا حتى يتم إيصالها إليه (ويدفع عن ذلك) . وترتفع تكاليف التنظيف والكى إذ يصبح الشخص أكثر عرضة لتلطيف ملابسه ، أو يرسل بها متلاحقة لأنه لا يملك وسيلة أخرى للتحقق من نظافتها . والشخص الذي كان يعيش بمفرده يبحث الآن عن سيدة تدبر شئون المنزل وخدمات الرسول « المرسال » . تصبح ضرورة بعد أن كانت مجرد ترف .

وحين يقتدر الأعمى وتسنع له الفرصة فإنه يشتري البصر ليواجه فقدانات أخرى ترتبت على العمى : فمن الممكن مثلا أن يحاول استئناف عمله أو مهنته بتعاقد يضمن له بانتظام شراء البصر - بصر السائق المشرف ، القارئ وأمين السر الذي يحتاج إليه . وهنا يتضح ارتفاع النفقات .

وصحيح أن هناك نفراً من الناس « تقل » نفقاتهم بالفعل مع العمى . وهذا نفر من الناس هم من غير العاملين لكسب قوتهم ، ومن ثم يتحولون بالعمى إلى « مقعدين » بالمعنى الحرفي للكلمة فهم لا يغادرون البيت قط ، وهم لا يحتاجون إلى الكثير من الملابس الجديدة ، وهم يتوقفون عن الاهتمام بأى شيء مما يمكن أن يكلف نفقات . ولكن عندما يتاح للتأهيل أن ينزعهم من مقاعدهم ، فإن نفقاتهم تغدو « عادية » - بل وتتخطى ذلك - من

يبدأون فى ركوب السيارات العامة ، ويبدون الاهتمام بالأشياء من حولهم - ومن ثم يبدأون بالضرورة فى الشراء والإنفاق .

وسيان ارتفعت النفقات أو انخفضت فى حالة ما ، فبعض هذه النفقات ملازمة للعمى . وهذه النفقات ، بالإضافة إلى النفقات المتصلة بالمرض ، إنما تعنى زيادة فى الإنفاق ، ويقل الدخل أو يتوقف تماما .

ولإذن ففقدان الأمن المالى يعنى بالنسبة إلى الكثيرين موة الحرية ، حرية التصرف .

الفصل السابع

فقدانات ناجمة تنال الشخصية في مجموعها

١٦ - فقدان استقلال الشخصية

قلة من المواقف الواقعية يمكن أن تزيد على مرارة التحول إلى العمى أو تكون ضربة أشد . فبالنسبة إلى عامة الناس يرمز « الأعمى العاجز » إلى التبعية التامة . فكل فقدان عرضنا له ينطوي على فقدان لاستقلال الشخصية — وحتى فقدان السلامة البدنية ، فإنه في طبيعة المشاعر التي يطلقها شعور الشخص بأنه « عالة » ، وأنه « متخلف » بالمعنى الذي شرحناه عند الحديث عن هذا الفقدان ، وفي ذلك ما يجعل التبعية أكثر عسراً على التقبل .

ولكن تختلف استجابات الأفراد لهذه التبعية القسرية ، وإذا كان لنا أن نعين العميان في مختلف الأشكال التي يحتاجون فيها إلى المعونة ، فلا بد لنا من أن نفهم أنه منذ الطفولة بتبعيتها عبر الازدهار المطرد لاستقلال الشخصية في الشباب والرشد إلى الشيخوخة يتبعها ثمة قوتان تزاو لان التأثير : الرغبة في الاستقلال بحريته ، والرغبة في التبعية وأمنها .

وقلما ننتبه إلى الدرجة التي تعمل بها هاتان القوتان المختلفتان في حياتنا ، ولكن بالنظر إلى أن هاتين القوتين تعملان فينا في الواقع جنباً إلى جنب ، فإنهما تؤديان إلى تناقضات واقعية مفزعة ، وبصورة عامة فإن الأشخاص الذين نصفهم « بالاستقلالية الشديدة » إنما هم في الأعماق في تبعية شديدة ، بقدر ما تعظم عندهم هذه الأعراض التي تبدو استقلالية ، تكون التبعية في الداخل أعظم . ومن ناحية أخرى فإن الأشخاص الاستقلاليين حقاً وهم أولئك الذين لديهم استقلالية في داخلهم ،

لا يجدون صعوبة فى هذه المواقف العارضة — أمراض ، كوارث فجائية —
والتي يتحتم علينا جميعاً أن نكون فيها فى حالة تبعية .

فعندما نسمع عن شخص ما « أنه استقلالى جداً . إنه لا يقبل مساعدة
من أى شخص » إنما هو فى أعماقه تابع ، بل وإنه من التبعية « ومرارة القلق
تخلصاً منها » بحيث إنه لا يستطيع أن يقبل المساعدة . فالمساعدة من أى
نوع تفرض عليه الشعور بالتبعية — هذا الذى يرفض التسليم به فى أعماقه . ونحن
نرى نفس الشيء عند الشخص الذى يستحيل عليه أن يسمح لآخر بأن يدفع
عنه فى مطعم . ونحن نرى نفس الشيء عند الأشخاص الذين يرغبون
الآخرين على الاعتماد عليهم وهم يفعلون ذلك حتى لا تطفو تبعيتهم إلى
السطح . ونحن نرى نفس الشيء عند الأشخاص الذين يلزمون أنفسهم بالتمرد
على السلطة والتقاليد والأخلاقيات والحرمان والممنوعات .

ومع ذلك فعندما يجد مثل هذا الشخص مبرراً كافياً يلزمه بالتبعية فإنه يمعن
فيها بكل كيانه — فعندما يمرض يلزمه المرض بالتبعية — فيلبسها صريحة
طفلية مكتملة — وعندما يشتد به المرض فإنه يفعل ذلك ويستمتع به .
فليس لأحد فى مثل هذا الموقف أن يتهمه . هو فى « تبعية » ولا شك ،
ولكنه واثق فى المستوى الشعورى من أن ذلك سببه فحسب شدة
وطأة مرضه .

وفى حالة مثل هذا الشخص ذى « التبعية » الشديدة فى أعماقه غالباً
ما يمكن بغض شديد فيما تحت المستوى الشعورى . وهذا البغض يتجه
ليس فحسب إلى الذات أو « الظروف المحيطة » وإنما يتجه فى الغالبية
العظمى من الحالات ضد الشخص أو الأشخاص الذين يعتمد عليهم . ولكن
البغض غالباً ما يحتجب وراء قناع من الشعور « بالولاء » ، بل ومن « الحب » .
ولكن معيار النضج الحق ، والاستقلال الحق إنما هو الدرجة التى
تقبل بها « التبعية » عند ما تفرض علينا . فالشخص الذى يستمتع

بالنضج والاتزان والاستقلالية الحققة لا يجد غضاضة في تقبل مواقف التبعية التي تنطوى عليها كل حياة . . وفي وسعه أن يناضل ضد التقاليد والقوانين والمحرمات ولكنه يفعل ذلك استناداً إلى أسس معقولة . بوسعه أن يتفق مع السلطة وبوسعه أن يختلف معها ، ولكن معارضته لن تكون كهذه المعارضة التي تفرض نفسها على الطفل المتمرد إزاء كل ما يمكن أن يذكره بطفليته ، بوسعه أن يعيش معولاً على نفسه ، وبوسعه أن يقبل معونة الصداقة ، ولكن لا يشعر في الحالين بما يثير إزعاجه . إنه لا يشعر بحاجة إلى أنه برغم الآخرين على أن يكونوا في « تبعية » بالنسبة إليه ، وذلك لأنه ليس لديه في أعماقه شيء يريد أن يثبت نقيضه لشعور.

ومع ذلك فالناس لا ينقسمون إلى صنفين استقلاليين « وفي تبعية » ، ففي كل واحد منا تعمل القوتان كلتاهما . في كل واحد منا قطاعات عريضة من التبعية الانفعالية ، ومن الممكن أن يعنى ذلك أن ثمة أشخاصاً معينين نحرص على أن « نشعر » بتبعيتنا إزاءهم ، فهؤلاء الأشخاص يجتذبون إلى سفح الشعور كل مشاعر التبعية التي ندافع ضدها وفي حضور هؤلاء الأشخاص تتدافع تبعيتنا المسرفة - أحياناً صريحة في وقفنا واعتمادنا عليهم ، وأحياناً تنقلب إلى استقلالية مفتعلة غاضبة ، ومن الممكن لنفس الاستجابة أن تنطلق أيضاً ابتداءً من أشياء معينة أو مواقف معينة .

وبصورة عامة فإن مدى ما نستمتع به من استقلالية في أعماقنا هو الذي يحدد مدى ما يمكن أن نطبقه من ضغوط في مجال التبعية المفروضة . وهكذا فإن الأشخاص الذين كان بوسعهم قبل العمى أن يتقبلوا هذه الدرجة العادية من التبعية التي تنطوى عليها الحياة إنما يتعرضون الآن لموقف

اختبار ، مختلف فالتبعية تثقلهم وتعوقهم فى الواقع ، فليس فى وسعهم الإفلات منها ، فإن الشخص الذى لديه مشاعر قوية من « التبعية » فى أعماقه تفتح أمامه إمكانياتان ؛ فإما أن يستسلم تماماً ناعماً فى تبعيته ، وإما أن يناضل فى مرارة للإفلات ، وهاتان الإمكانياتان يجدان ما يتوجهما فى صورة اتجاهين متطرفين (أو فى صورة تجسيدات لفظية) : « العمى إعاقه يستحيل قهرها ولا أمل معها » العمى لا يعدو أن يكون مضايقة قليلة الشأن .

وعلى العكس من ذلك فإن الاستجابة السوية عند الشخص الذى يستمتع بالنضج الانفعالى إنما تقوم على الاعتراف بالتبعية المفروضة عليه ، على الرغبة القوية فى أن هذه التبعية كان بوده ألا تكون ، وعلى القدرة على تقبل هذه التبعية حين تصبح ضرورة حتمية دون ما سعى منه إليها حين لا تكون محتومة — ولكن الذين يستمتعون بنضج انفعالى كامل هم فى الحقيقة قلة ، ومن ثم فاستجابات الغالبية من العميان تتوزع ما بين النضج وطره النقيض . وإمكانية هذه الاستجابات المختلفة أمام التبعية القصيرة للعمى حتى التى تفسر اختلاف إجابات العميان على كثير من الأمثلة : مصاحب ، أم لا ؟ عصا أم لا ؟ كلب قيادة أم لا ؟ براى أم لا ، قارىء أم لا ؟ وظيفة أم لا ؟ تأهيلي أم لا ؟

إن التبعية التى يفرضها العمى بالضرورة لأمر سىء بدرجة كافية . ولكن عند ما يجد الأعمى نفسه « تابعاً » ويكتشف فى أعماقه مشاعر البغض إزاء الأشخاص الذين يعتمد عليهم فمن الممكن أن يلجأ إلى الدفاع ضد مشاعر البغض هذه بتغطيتها ، وذلك بأن يمعن فى تبعيته بأكثر مما يحتاج إليه حقاً .

ومن الممكن ألا يتعلق الأمر بالأعمى ، بل بالأشخاص الذين يحيطون به ويرتبط معهم بروابط عاطفية ، فإنهم قد يعملون بطريقة لاشعورية على الزيادة من تبعيته لهم . فمن الممكن أن يستشعروا المتاع فى هذا الوضع الجديـد للأعمى منهم . فالزوجة ، دون أن تكون على وعى بذلك ، يمكن أن تستشعر

المتاع وهي تجد زوجها فجأة « تابعا » لها - ومن الممكن للطفل أن يستشعر شيئاً من المتاع ، وهو يجد أحد والديه تابعا له ، والأصدقاء والجيران يجلبون في تبعيته لهم بعض مشاعر المتاع التي تقوى الرابطة ، ومن ثم يميلون بشكل لا شعورى إلى الزيادة من تبعيته .

وعليه فالفقدان المروع لاستقلال الشخصية إنما هو من أكثر الفقدانات أثراً بين الإعاقات العديدة التي ينطوى عليها العمى - وذلك لأن موت استقلال الشخصية إنما يعنى مئة الحياة البالغة ٥

١٧ - فقدان الصلاحية الاجتماعية

إن الفقدان الذى نتناوله الآن بالتحليل هو الآخر من أقسى الضربات التي ينزلها العمى بالشخص المتوسط (باستثناء قلة قليلة تشذ عن ذلك) .

فقدان لتقبل الذات ، وفقدان لكرامته الإنسانية ، بل فقدان للفردية والشخصية^(١) . ومع ذلك فإن هذا الفقدان ، شأنه شأن الفقدان التالى الذى سنتناوله ليس بفقدان حتمى . فهو يفرض نفسه على الأعمى ، لانتيجة للعمى إنما نتيجة لما يبيديه المحيطون به من تعاطف ومحبة فى الظاهر ! ٥

فنحن جمهور المبصرين ، نضيف هذا الفقدان إلى الإعاقات العديدة للعمى لأننا نخاف العمى . إننا نخاف من كل مفاهيم العمى : الظلام ، الشر ، الجهل ، والغموض ، وهى التي ينطوى عليها الظلال والدجبة .

وإننا نخاف من كل « الآثار الناتجة » عن العمى ، من فقدان الصلة بالواقع ، ومن الانعزال عن الناس ، ومن فقدان العمل والوظيفة ، ومن

(١) عندما قامت « جمعية عيان الرب » B.B.A. تضمن إعلان تأسيسها كما جاء ميثاقها تمكين أعضائها وهم الذين فقدوا البصر فى خدمة الولايات المتحدة ، من أن « يأخذوا مكانهم الصحيح فى المجتمع بين رفقائهم . ولقد كانوا فى ذلك يناضلون بوجه خاص ضد هذا الفقدان بعينه .

فقدان الأمن المالى ، ومن فقدان أسلوبنا المألوف للتكيف مع الحياة . فإننا نخاف من أنفسنا ومن مواطن ضعفنا . إننا نخاف من فقدان القدرة على التحرك ومن التبعية ، وأهم من هذا كله إننا نخاف التشويه « البتر » ونخاف المجهول ؛ وإننا نكره مواجهة مخاوفنا أو التسليم بوجودها ، وبالتالي فإننا (أو على الأقل الغالبية من المبصرين) لن ننظر فى اتجاهاتنا إزاء العمى ، لا ولا إلى العمى بطريقة عقلية . فغالبيتنا تقترب من العمى والعميان بعقول تشلها الانفعالات المصطرعة إلى الحد الذى يكاد يستحيل عليها فيه أن تعمل .

والمخاوف تستتبع النفور — ولكننا لا نحب التسليم بذلك أيضاً ؛ ذلك أننا وإن سلمنا بوجود نفور ولدينا من الإعاقة — فنحن نشعر أن لاغضاضة فى ذلك — فإننا نعرف أن النفور إزاء شخص معوق شىء خطأ لا ينبغى ، وبالتالي أية رغبة تترتب على هذا النفور فى استبعاده من أمام أبصارنا أو حتى فى إزالته من أفكارنا . فلو أن لدينا شيئاً من هذه المشاعر فإننا لا نستطيع أن نسمح لها بأن تبرز إلى النور والشعور ، ولكن بدلاً من ذلك ، نسارع إلى تغطيتها وحجبها « بالإشفاق » على الشخص المعوق — عازلينه بذلك عن أنفسنا ، مضطلعين فى الوقت نفسه بتهدة ضميرنا .

ومن الممكن لمشاعرنا أن تجد ما يسكنها بشكل أعظم عندما نمنحه شيئاً — كالنقود مثلاً ، أو عندما نصر على أن الجمعيات التى نساندها يتحتم عليها أن تقدم إليه النقود . ومن الممكن أن نمنع أكثر من ذلك فنمنحه هذا الشىء الذى يسمى خدمة — ولكن مرة أخرى بدافع الإشفاق . وهذا الإشفاق يمتد بجذوره إلى مخاوفنا ورعبنا .

وربما تكون الانفعالات التى يطلقها العمى فىنا زائدة عن الحد . عندئذ نقوم بالإشفاق « من على بعد » على الأعمى . نرتعد من فرط مشاعرنا ونبدى إعجابنا بالأشخاص الذين يقتدرون على العمل مع « العميان » أو نذهب إلى الطرف النقيض ، فنقيم علاقة جد وثيقة مع العميان « فنملك » العميان .

إننا نرغمهم على الدخول في شكل أو آخر من التبعية لنا ثم نلتهم سخطاً لزاء
تكرانهم للجميل لو تراءى لهم أن يحاولوا بعد هذا كله ممارسة إرادتهم
الخاصة بهم .

وسيان كنا على بعد أو على قرب فإننا نفعل بهم ما نفعله بكل جماعات
الأقلية - إننا نغزلهم عن المجتمع . ذلك هو مصدر كل التعميمات الزائفة ،
حيث كل تعميم يقدم صورة شائبة « كاركاتور : الأعمى الشحاذ ، الأعمى
الموسيقى ، الأعمى الذى يبدو مبتسماً ولكنه يكره في أعماقه المجتمع ، الأعمى
السعيد » (من المدهش إلى أى حد هم سعداء !) .

وهذا هو السبب في أن الناس يصفون على الأعمى فضائل خارقة
وقدرات معجزة « كل العميان غاية في الطيبة » أو « أليس من المدهش أنهم
يعرفون الألوان بمجرد لمسها فقط ؟ » ثم يمضى الناس فيجردون العميان
من العقل ومن مجرد الفهم العادى : « ليس لك في الواقع أن تتوقع منه أن
يتخذ بنفسه هذا القرار ، فأنت تعرف » أو « كيف له أن يتأكد من أنها
هى زوجته ؟ » ، وفي كثير من الحالات ؛ يخلط أناس - وهم عدا ذلك
أذكاء - ما بين العمى والصمم ، فهم يقولون مثلاً : « عندما تعمل مع
العميان ينبغي أن تعرف الحديث بالإشارة » أو أنهم يوجهون الحديث إلى
الأعمى عن طريق طرف ثالث (« أسأله هل يريد شيئاً من السكر ؟ »)
أو هم يتحدثون إلى الأعمى بصوت مرتفع حتى يستوثقوا من أنه سيسمع .

وحتى الذين يعملون من المبصرين في خدمة العميان فإنهم لا يبرأون
من نفس هذه التصورات الزائفة . هم لا يعتقدون في العادة ، كما يعتقد
عامة الناس ، أن الأعمى حقوق وجاحد للجميل . ولكنهم يعتقدون
بدلاً من ذلك أن كل العميان يتسمون « بالدماثة والمحبة » . أولئك هم
المبصرون الذين يملكون : المبصرون « ملاك » الأعمى ، المبصرون
الذين يعملون في جمعيات العميان الذين يناقشون ويضعون التقارير عن

« عمياننا » ، ما يفعلونه يدور في تفكيرهم عمياناً هم كأى شخص آخر ، هذا ما أقوله دائماً — ولكن فيما بيننا ، ألا تعتقد أنهم مختلفون ؟ . مثل هذا السياق الاجتماعى ، خرج الأعمى حديث العمى ، خرج منه محملاً بكل اتجاهاته ومشاعره لإزاء العميان الذين كان يشفق عليهم فيما مضى . والآن وقد أصبح أعمى فإنه يعيش فى نفس هذا السياق الاجتماعى . وكأنه لا يجد فى مشكلات العمى الأخرى ما يكفيه ، فإنه الآن لا يستطيع أن يقبل نفسه^(١) .

فى المجتمع الكبير ، هو موصوم « أعمى » . والناس الذين لم ينتبهوا إليه إطلاقاً من قبل ؛ ولم يفكروا فيه قط من زاوية أى صفة من الصفات النوعية ، يجدون الآن له لافتة جديدة مميزة ، إنه الآن هذا « الأعمى » ، الأعمى الحامى ، الأعمى « الترزى » . فالأهمية تنصب على عماه . ولربما يستوقفه فى الطريق شخص غريب يسأله عما إذا كان درس يوماً فى كلية أوشكوش Osh Kosh — « كنت أجلس بجانب زميل أعمى فى الفصل خلال سنوات دراستى بأوشكوش . ولقد حسبتك هو . كان هو الآخر زميلاً لطيفاً » . وربما كان زميله شخصاً لطيفاً ، فهذا ممكن ، ولكن من الواضح أن الملاحظة الهامة الوحيدة التى بقيت عنه هى عماه . إن الأعمى حديث العمى يدرك أنه قد استحال إلى نمط (تنمط) . وضعوه فى فئة ويتوقعون منه أن يكون نسخة .

لا يزال أصدقاؤه على ولائهم — فأنت لا تتخلى عن صديق لمجرد أنه أعمى ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أن ثمة شيئاً غريباً فى الأمر . إنهم يأتون يعطفون ولكنهم ينصرفون فيتحدثون بعضهم إلى بعض : « مسكين جو » . ما من شك فى أنه يواجه الأمر بشكل رائع . ومع ذلك فإنه يصعب جداً على النفوس أن تراه هكذا . ولكن ما من شك أنه يلقى

(١) « إن المبصر فيه يرفض الأعمى للدخيل » — المترجم

الأمر كله بمرح . ورويداً رويداً يتبين جو أنه لم يعد جو بل « الأعمى جو » .

ورويداً رويداً يفقد مكانه في المجتمع وإن كان من الممكن أن يكون قد احتل مكاناً جديداً وأنه يحب دوره الجديد « جو المرح » ، الرجل الأعمى المسكين » .

في الدائرة الاجتماعية الواسعة وحتى في الدائرة الضيقة لصداقاته وجيرانه فقد مكانه الأصلي - وهو المكان الذي يترجم عن شخصيته ، مزاجه ، عاداته ، إنجازاته ، وذاته . لقد فقد الصلاحية الاجتماعية . فإذا ما التقى بغرباء ، أو دخل في دوائر جديدة ، فإنه لا يفعل ذلك الآن على أنه رجل ، ولكن باعتباره أعمى .

وأخطر من هذا كله أنه فقد مكانته في دائرة أسرته نفسها ، لم يعد الآن « كسيب العيش » أو رب البيت ، لقد أصبح الآن شخصاً أقل . فتصورات المجتمع ومشاعره تنفذ داخل البيت . ولكن هنا إما أن يتلاشى الإشفاق ، وإما أن ينهار البيت .

الأعمى تابع ، وهو في تبعيته هذه يشعر أو يستشعره الآخرون عبثاً ثقيلًا (والذين يشعرون بذلك يسارعون إلى كتمانهم في أعماقهم وتغطيتهم بشكل أو بآخر) .

وعلى وجه الحملة فإن تبعية الأعمى غالباً ما تزايد في الدائرة العائلية ، وذلك لما تتيحه هذه التبعية في المستوى الشعوري من متاع الإحساس بالقوة والتفوق . وتحول القرارات أكثر فأكثر عنه إلى الآخرين في الأسرة بقدر ما يعمى أكثر فأكثر تحويله إلى اللامبالية . وعند ما يثور ضد ذلك فإن ثورته تعزى إلى الطابع الجديد الذي أصبح له مع العمى « شيء محزن » . فإني أعتقد أنهم جميعاً على صورته » .

إننا نخاف العمى نحن المبصرين . ونحن لا نستطيع أن نواجه الانفعالات والمشاعر التي يولدها العمى فينا مواجهة كافية تسمح لنا بإعطاء الأعمى المكان الذى يترجم عن « شخصيته » بيننا . نحن لا نستطيع ذلك اللهم إلا أن نقتدر على مواجهة أنفسنا ومشاعرنا ، ومعاملة العميان كالأخرين تبعاً لقيماتهم الفردية وكرامتهم الإنسانية .

إن هذا فقدان أشبه شيء بالطريق ذى الاتجاهين . فإن الأمر لا يقتصر على اتجاه جمهور المبصرين ، ولكن هناك أيضاً اتجاه الأعمى نفسه ؛ فإذا كان الأعمى نفسه يشعر أنه لم يبلغ إلى « الصلاحية » بعد عماه ، وإذا كان يخزن مشاعر الحزن أو لا يزال يجتر مشاعر الأسى فى ذلك ما يجعله فى الواقع بعيداً عن الصلاحية « الاجتماعية » .

فلو أنه فى داخل نفسه لم يكن مستعداً ولا قادراً على أن يضطلع بدوره السابق ، ويحتل مكانته السابقة ، فإنه بذلك يعمل على الزيادة من مصاعب فقدانه وثقله .

وكائنا ما كان المصدر ، فإن فقدان الصلاحية الاجتماعية ، فقدان تقبل الأسرة والأصدقاء للذات ، وفقدان الفردية ، إنما يعدّ واحداً من أقسى الفقدانات إن لم يكن أقساها على الإطلاق بين الإعاقات العديدة للعمى . ذلك أن الإنسان كائن اجتماعى ، وهنا مودة المجتمع .

١٨ - فقدان القطعية (الضياع ضمن الكل)

كان فقدان السابق بمعنى ما ، فقدان القدرة على « البروز » وارتفاع الشخص إلى مكانته السابقة فى المجتمع ، أما فقدان الذى نتناوله الآن فهو فقدان القدرة على « الانغماس » والضياع فى « قطيع » الناس وزحمة الجماهير ، فقدان القدرة على القطعية والكينونة النكرة وعلى أن يكون مجرد آخر فى الطريق . هو بصفة أساسية فقدان القدرة على « التعشيق » فى سياق أقرانه دون أن يبرز كشيء مختلف غريب .

إن الأعمى يفقد الخصوصية ويصبح « لافته » . الأعمى يضرب زوجته : « الأعمى يفعل كذا وكذا » تصلح عناوين في الصحف ، في حين أن المبصر حين يفعل نفس هذه الأشياء نادراً ما يجد مكاناً له بين أخبار الحوادث والشخصيات . وعلم النفس الاجتماعي يظهرنا على بعض المشكلات التي تتصل بعدم الانتماء إلى الجماعة ، أى التي تتصل « بخارج الجماعة » .

وبخاصة عندما تكون هناك علامة مميزة للأفراد من خارج الجماعة ، ذلك هو على وجه الدقة الوضع المفروض على الأعمى . تتجه إليه الأضواء ، هذه التي يتحتم على الشخصيات الاجتماعية أن تعيش فيها ، ولكنه يختلف عن غالبية هذه الشخصيات في أنه لم يسع إلى هذه الأضواء ، لقد أرغمه العمى على أن يكون فيها . ولا يقتصر الأمر على كونه يعيش في « واجهة عرض » (يسمح زجاجها برويته دون أن يسمح له بالروية) وإنما يتوقع الناس منه « الحجارة » إلى درجة لا يتطلبونها من الشخص المتوسط .

إن بعض الإعاقات لا تلزم ضحاياها بعلامات مميزة علانية ، فعلى سبيل المثال : الأصم ، أو الشخص المصاب بمرض في قلبه ، يستطيع أن يمضى بين الناس دون أن يثير انتباه أحد . ولكن هناك إعاقات أخرى من قبيل العرج الشديد ، تلزم ضحاياها بالعلانية بحيث ينتبه إليهم الناس عندما يسرون في الطرقات . يصدق هذا على العمى ويعدّ بالنسبة للكثيرين مشكلة من المشكلات الرئيسية للعمى .

وتأتى مع هذه الوصمة كل الأسئلة التي تدور حول أحسن الطرق لإخفائها أو تمويهها بحيث « تمضى » دون أن تثير الانتباه . ذلك هو أحد الأسباب الذى يجعل من المستحيل على بعض العميان أن يسمحوا لأنفسهم باستخدام النظارات السوداء ، أو استعمال العصا أو كلب القيادة . وأحيانا ما يكون الأشخاص الذين يأتون بأبرز أشكال « العميانيات » (لازمات العمى) ، وبالعلامات الفاضحة للعمى ، من قبيل المشية المميزة والتعرض للأخطار .

والأشخاص الذين يقعون فى أكثر التجارب حرجاً هم من العميان الذين يرفضون استخدام العصا ، أو كلب القيادة ، إذ تروعهم فكرة أى شارة يمكن أن تبرزهم بحسبانهم « خارج الجماعة » .

وهذا الضغط من الخارج ومن الداخل يمكن أن يستحيل صرحاً عالياً فى أعماق الأعمى ، وأن يجرفه إلى موقف من العزلة حيث يعيش على الأقل لفترة ما مشاعر الانتهاء إلى جماعة ، مشاعر « داخل الجماعة » . ومن الممكن أن يصبح الأمر عنده من القوة ويرتفع الصرح بحيث يستشعر الرغبة فى الانتحاء خارج الشارع بعيداً عن الزحام متجهاً إلى أى مكان يبعد به عن الأصوات ، ولو إلى حين . وتمضى ليلة فى إثر ليلة وهو يذكر فى صباة تلك الأيام التى كان ينعم فيها بتجربته الاجتماعية ، وكان يستطيع أن يتوه بين أقرانه .

وهذا فقدان القطعية الذى يتداخل فيه فقدان الفردية إنما هو صدمة عارمة تتصل عند الشخص الذى يفقد بصره .. صدمة تموت فيها خصوصيته :

١٩ - فقدان تقويم الذات

إن فقدان تقدير الذات له وجهان متميزان ؛ فقدان « موضوعى » فى تقدير الذات ، وفقدان « ذاتى » « لقيمة » الذات (صورة الذات) . وفى الحالة الثانية ينبغى أن يتطابق التقدير الموضوعى للذات مع التقدير الذاتى للذات ، وذلك فى عملية تقويم الذات التى تضع فى حسابها الوحدة الكلية لكياننا ، بكل ما أسبغه علينا الله من استعدادات فطرية والدرجة التى بلغناها حالياً من التطور ، وإمكانياتنا التى يمكن أن تتفقت عن إسهامات مقبلة فى المجتمع وتكون دعامة لتقبل المجتمع لنا . مثل هذا التقويم للذات لا ينبغى أن يكون استهجاناً لها ، أو ثناء عليها ، وإنما ينبغى أن يكون فحصاً شاملاً محصاً للذات ، ولكن قلة منا هى التى تقتدر بدرجة كافية على أن تكون صادقة مع نفسها بحيث تتجنب التزييف زيادة فى قيمة الذات أو خفضاً منها . قلة منا

لها من التواضع ما يمكنها من أن تسلم حتى فيما بينها وبين نفسها بالهبات التي أسبغها الله عليها والنقائص التي تركنا عليها . وإذن فثمة في داخلنا نوعان من تقويم الذات : التقويم المنطقي ؛ أى التقويم الموضوعي للذات الذي يكاد يكون الصواب ، والتقويم الآخر الذي يعكس كل ما كان لنا إبان الطفولة من تصورات ومشاعر عن أنفسنا ، كائننا ما كان الحديد الذي يضيفه بعد ذلك النمو : ذلك هو « شعورنا بقيمة ذاتنا » ، أو قل قيمة ذاتنا كما نستشعرها ونعيشها ، أو صورة الذات :

ويتضح وجود هذين النوعين من تقويم الذات في الحالات العصائية «الخفيفة» حيث نجد صورة الذات عندهم تنطوي دائماً على شعور مستمر وجد واقعي «بلا قيمتهم» .

وعند ما يقدروهم الناس في شيء ما تقديرأ أعلى ؛ فإن ذلك يزعجهم ويشعرون أنهم منافقون لو أنهم قبلوا هذا التقدير الذي يخلفه عليهم الناس ؛ ومع ذلك فعند تطبيق الاختبارات الموضوعية التحليلية ، وهى اختبارات ذاتية يطبقها الأشخاص على أنفسهم بالإجابة المكتوبة ، فإنهم غالباً ما يقومون أنفسهم تقويماً عالياً في البند تلو البند . وعند ما يفرغون من تطبيق هذه الاختبارات ، يشعرون أنها خاطئة ؛ لأنها تعطي نتائج أزيد من قيمتهم الحقيقية - ومع ذلك لا يستطيعون فى أمانة تغيير أية إجابة من إجاباتهم السابقة . ومثل هذه التجربة يمكن أن تثير الانزعاج عند الشخص الذى يقوم بتطبيق الاختبار ، وذلك لأن تقويمه الموضوعي لذاته وتقديره الذاتي لها يتجاهاً هكذا بشكل صريح . (وليس معنى هذا أن نفهم أن صورة الذات تكون دائماً فى مستوى أدنى من القيمة الفعلية الواقعية ، فمن الممكن أن تتعرض صورة الذات للتشويه فى الاتجاه الآخر) ، وإذن فالقيمة الموضوعية للذات ، أشبه شيء بالشريط الذى يسجل دقات القلب ، تظهر كل شخص على قيمته الحقّة .

وبظهور العمى يسجل المنحنى هبوطاً مفاجئاً . كان شخصاً مكتملاً « أما الآن فهو ناقص مبتور . كان واثقاً برجواته ، أما الآن فتنهشه الشكوك . لم يذهب بصره فحسب ، بل إنه لا يستطيع أن يثق بحواسه الباقية . كان خلال حياته السابقة كلها يعرف في ثقة وجهته ، أما الآن فليس له من صلة بالواقع يثق بها . إنه الآن بغير فرحة ، بغير ألوان . فهذه الخلفية البصرية في حياة بلا نور ، يجد نفسه وحيداً غير واثق من الحب . لم يعد بوسعه رؤية أشياء جميلة ، لا ولا حتى أشياء سارة . كان فيما مضى حراً طليقاً في غدوه ورواحه ، أما الآن فشلول الحركة . لقد عاد القهقري إلى الطفولة . يعجز حتى عن القراءة والكتابة ، وفي علاقته بالناس وجهاً لوجه يعانى الإعاقة . عسير عليه الآن أن يساير أحداث الحياة وأشياءها فيفوته ركب الحياة . تلاشت فرص الترويح مع أنه يحتاج إليها اليوم كما لم يحتاج إليها قط في حياته من قبل . آلاف الأشياء التي كان بوسعه أن يضطلع بها في يسر بل ودون ما تفكير تسبب له الآن مشاعر الاضطراب والإحباط والأسى . راح عمله ، وولت وظيفته ، وانهار المستقبل الذي أحكم تخطيطه . يزيد العمى من تكاليف حياته ، ومع ذلك فدخله قد نقص أو توقف . والمرة بعد المرة في هذه المواقف التي كان يضطلع بها يجد نفسه الآن في تبعية تامة وعجز ، انهارت مكانته في مجتمعه ، وتقهر مرغماً إلى دور ثانوي في أسرته ، يكاد يكون فقد فرديته ، ولم يعد بعد يستطيع أن يتقبل ذاته . والقيمة الموضوعية لذاته ، تلقت ضربة مدمرة . وكما يقبل هذه اللطمة فقد يعنى ذلك بالنسبة إليه أن يبدأ حياته من جديد من البداية .

ولكن ما الذى يطرأ على صورة ذاته — على تقويمه الذاتى لذاته ؟

مازلنا في حاجة إلى دراسات كثيرة لتبين أثر الإعاقة الخطيرة في صورة الذات . كانت صورة الذات في صورتها الأولى إبان الطفولة الباكرة نتاج معارفنا المحدودة عن أنفسنا ، وما يقوله عنا الناس (آباؤنا ،

شقيقتنا والآخرين) أو ما نعتقد أنهم يقولونه عنا . وترك تجارب الشباب والرشد نجاحاً وفشلاً آثارها أيضاً ، ولكن هذه التجارب مع الوقت إنما تجد نفسها أمام « نواة قاعدية » صلبة رسخت في صورة الذات ، نواة تكاد في بعض الأحيان تكون منفصلة على التغيير .

ويمكن القول بصفة أكيدة أن توازن أى شخص في الحياة إنما هو بمعنى ما إقامته توازناً مع صورة ذاته ، ولكن تحت وطأة سلسلة الضربات الصدمية التي يأتي بها العمى ، يمكن لهذا التوازن أن يتصدع بشكل خطير . فمن الممكن للأثقال الجديدة أن تكون في وطأتها أكثر مما تطيقه صورة الذات السابقة ، ما يتمخض عن خلل شديد في الانتظام الكلي للشخصية ، وعن موت صورة الذات .

٢٠ - فقدان الانتظام الكلي للشخصية

وفي ختام ما سبق ، نتناول ما يطرأ على الوحدة الكلية للشخصية تحت وطأة هذه الضربات العديدة . فكل شخص يلقي عماء بمشاعر تتباين عن مشاعر الآخرين ، وبشخصية تختلف عن شخصية الآخرين ؛ فالعمى في ذاته لا يصبُّ الناس في قالب (نمط) . ومع ذلك فالعمى له على الإطلاق القدرة على أن ينزل الاضطراب والخلل ، وأن يقوض هذا الانتظام الكلي للشخصية الذي لازم الفرد طيلة حياته . وقدرة العمى هذه لا ترجع إلى شيء خاص بالعمى من حيث هو كذلك ، وإنما ترجع إلى أن العمى ، شأنه شأن كل إعاقه رئيسية هو ضربة تشمل كما رأينا على مجموعة من الضربات تعد كل منها قاسية في ذاتها - تطيح بأساوب حياة بأكملها .

نحن نعيش في نوع من الحضارة يظهر فيه بوضوح أن نفرأ قليلاً منا هم فحسب الذين لديهم أية دفاعات قوية ضد الصدمات . تحاول البحوث الطبية دراسة الصدمة الفيزيائية ، والاستجابة التي لا تزال غامضة ،

استجابة جهازنا الفيزيائي للصدمة الفيزيائية ، ويحاول الطب العقلي ببحوثه زيادة معارفه عن الصدمة النفسية ، وزيادة فهمه للآثار الناجمة عن الصدمة النفسية . فإن أشخاصاً ممن كانوا بشكل واضح من أصحاب الشخصية القوية ومتكيفين مع حياتهم إذا بهم فجأة يفقدون كل تكيفهم النفسى ويختل عندهم انتظام الشخصية ، بل وأحياناً ما يصل الأمر إلى حد التفكك - ويكون الموقف الباعث على ذلك (إن لم يكن سببه) مجرد ضربة واحدة وبسيطة من قبيل فقدان الوظيفة . أو من الممكن أن ينهار آخرون دون ما سبب رئيسى واحد ظاهر ، ويكشف الفحص عن أن جملة الصدمات العقلية هى التى تسببت بتراكمها فى إحداث هذا الانهيار .

وكائنا ما كانت العلة فى ذلك - فثمة فيما يبدو اتفاق عام - فإننا جميعاً ننتطوى على إمكانية الوقوع فى نوع ما من الاضطراب ، إمكانية معاناة نوع ما من الصعوبات الانفعالية . ومن الممكن ألا نتعرض قط طيلة حياتنا بصورة فعلية لهذا الاضطراب ، ولكنه يظل مع ذلك إمكانية قائمة تنفجر اختلالاً متى نزلت ضربة قوية (والفترة هنا نسبية فقد تكون الضربة هينة فى ذاتها ولكنها نعيشها ضربة قاسية) . وكثيراً ما نلتقي فى الناس المحيطين بنا علامات وأمارات دالة على التوتر مما لم يكن يدور قط بخلدنا من قبل . ولربما هم أنفسهم لا يشعرون به ، وهى أمارات تذكرنا كيف أن الكثيرين من الناس فى هذه الأيام إنما يعيش الواحد منهم كحزمة انفعالات لا يتنبه إليها ولا يشعر بها ، لأنها لا تزال تحت الضبط ولكنها متى وجدت الشرارة لن تلبث أن تنفجر فى اختلالات متضخمة عن مشكلة واقعية للشخصية .

بهذه الخلفية من التوتر والقلق إنما يواجه الأعمى عماءه ، والشخصية التى يواجه بها العمى بما تنطوى عليه من مواطن قوة أو ضعف تعد الآن جد هامة . والفلسفات التى كانت له عن الحياة وأهدافه كلها تلعب دورها

في تجديد دلالة وشدة الضربات التي يعانها . إن شخصيته ، إن نفسيته ، هي التي تعانى هذه الضربات العديدة .

عند كثير من الناس إن لم يكن عند غالبية الناس يعتبر العمى على إطلاقه نوعاً من الاستجابات العصائية . ففي الواقع يتختم على أى شخص أن يجتاز فترة قاسية من الانقباض ، مصحوبة على الأقل بزعات عصائية عاتية . وعندما تنتهى فترة الانقباض فإن الشخصية تشرع في إعادة انتظامها ، أو تقيم انتظاماً جديداً بأساليب وأنماط جديدة .

ويهرب البعض بسرعة أو بالتدريج من مواجهة المشكلات التي يأتي بها العمى ، وذلك بإقناع أنفسهم والآخرين أن هذه المشكلات طفيفة ، وأن العمى « ليس بإعاقة بقدر ما هو مضايقة قليلة الشأن » ويهرب البعض من مواجهة المشكلات خلال سنين طويلة ، أو خلال حياتهم كلها ؛ وذلك بإقناع أنفسهم ، على الرغم من التأكيدات الطبية المتكررة بانعدام أى أمل ، بأن عمائمهم ليس نهائياً : سوف تتحسن الحالة بشكل طبيعي ، أو سوف يظهر اكتشاف جديد يحل المشكلة ، أو أن الله سيمن عليهم بمعجزة (لا استناداً إلى الإيمان ، وإنما إلى الإلهام ، وكأن الله قد أوحى إليهم بذلك) .

وهناك آخرون يهربون من مواجهة مواطن الضعف في أنفسهم هذه التي اجتذبتهم العمى وأبرزها ، وذلك بإلقاء كل اللوم على عمائمهم . فالعمى بالنسبة إليهم مأساة لا يمكن قهرها ، وليس هناك من فائدة ترجى من استمرار المحاولة .

وهناك آخرون يهربون داخل العمى ؛ على سبيل المثال هذا النمط من الناس الذين لا يحتاجون إلا إلى مبرر حتى ينتهوا إلى الاستماع بالتبعية . ففرصة قيام الآخرين على خدمتهم وربما بالتدريج فرصة تكبيل أولئك اللذين يقومون على خدمتهم في أغلال التبعية إنما هي في الواقع فرصة طالما تطلع إليها هؤلاء العميان . إنهم يتحدثون عن الصعوبات التي يعانونها ،

بل وربما يقومون بمحاولة جريئة استعراضية للتغلب على هذه الصعوبات (محاولة استعراضية تكون من الجودة بحيث تكفى لإقناعهم هم أنفسهم) ولكن فى الواقع إنه لأيسر عليهم الآن أن يكونوا عالة مستندين إلى مبرر ممتاز للتبعية بأكثر مما كان ذلك ممكنا فى أى وقت مضى حيث كان عليهم أن يكونوا عالة دون أية بادرة لسبب يبرر ذلك .

والعمى هنا لم يتمخض عن أى بناء جديد للشخصية ، ولكنه فحسب أبرز معالم البناء لهذه الشخصية لقي بها الأعمى عماه . ويصدق هذا فيما يبدو على الغالبية العظمى من الحالات (وإن لم يكن فى جميعها) : فلا قيام لبناء جديد للشخصية ، وإنما تتضح معالم البناء القديم باتجاهاته الرئيسية أكثر من أى وقت مضى .

وليس معنى هذا أن الشخصية ستبدو بالضرورة بعد العمى هى ما كانت عليه من قبل . فالتيارات التى تنساب منذ وقت طويل فى الأعماق يمكن أن تندفق إلى السطح . والشخص الذى استطاع منذ وقت طويل أن يكبح عدوانيته بعيداً يمكن أن يصبح عاجزاً عن الاستمرار فى الهيمنة عليها وإخضاعها للضبط ، ومن ثم تنفجر عدوانيته وكرهيته صريحة فى وجه المحيطين به . والمتطرف الذى كانت تدفعه حاجات داخلية إلى أن يثور ضد الوالدين ، المجتمع والأخلاقيات ، الكنيسة أو أى شئ آخر مستنداً إلى معقولة ظاهرية يمكن أن يستمر فى نفس هذه الأعراض ، ولكنها تبدو الآن على أرضية العمى أكثر بروزاً من حيث التمرد .

والقلق يمكن أن يبرز عند كثرة من العميان حديثي العمى ولم يكن بالنسبة إليهم من قبل مشكلة بأى حال ، ومن الممكن أن يستمر هذا القلق معهم إلى آخر العمر ، إن لم يمكنهم العلاج النفسى من إخضاعها للضبط . ومن الممكن لهذا القلق أن يتبدى ، عند العميان ، كما يتبدى عند المبصرين فى أعراض أو أخرى فيزيائية : قرح المعدة ، أوجاع شديدة.

فى الرأس لا صلة لها بالعمى الفيزيائى ذاته ، شدة خفقان القلب ، عرق الكفين ، حالات هينة من العدوى ولكن تستمر طويلا ، روماتيزم ، التهابات مفصلية شديدة ، ضياع الصوت أو (أسوأها جميعاً للأعمى) ضياع السمع . ومن الممكن لوظائف حسية أخرى أن تدخل تحت راية الاضطرابات النفسية . فمن الممكن أن يكون الأعمى عاجزاً عن تعلم « البرأى » لأنه لا يستطيع أن « يحس الضغط » ، على حين يكون فقدانه للحساسية مجرد تعبير مباشر عن مشكلاته النفسية . ومن الممكن أن يعتره أثناء المشى ويمنعه من ممارسة نفس الشيء الذى يعتقد أنه يرغب قبل كل شيء فى أدائه — يعود من جديد إلى حرية التنقل : هذه الأعراض وآلاف غيرها من الأعراض البدنية يمكن أن تظهر^(١) لنتيجة العمى وكحالات تمثل تحديات للطب السيكوسوماتى (النفسى بدنى) .

هذا إلى أن العدوانية يمكن أن تبرز عند شخص لم تكن قد ظهرت قط عنده من قبل ، كما يمكن أن تبرز المستقبل الظاهرى للمعاناة أو بطولة زائفة من المعاناة مما يستهدف العقوبة لا الاستسلام . والمباهاة واستثارة الإطراء يمكن أيضاً أن يلعبا دورهما تعبيراً عن مشاعر انعدام الأمن فى الداخل والحاجة إلى الحب . والأعمى الذى تنهشه الشكوك فى أمر رجولته (أو المرأة

(١) يقدم كتسفورث ملاحظة جد هامة مؤداها أن الأشخاص الذين تكون لديهم قبل العمى أعراض بدنية عن القلق ، فإنه غالباً ما تختفى عنهم هذه الأعراض عند ما ينزل بهم العمى . فن الواضح أن الحاجة المازوشية اللاشعورية بخصوص العمى إشباع لها ، ويشير كتسفورث إلى أن هناك عند ما يضطلع التأهيل بجمل العمى شيئاً أقل ثقلًا ، أن تعود من جديد الأعراض البدنية للقلق ، وفى هذا المجال يحظر ببائنا الأشخاص الذين يفقدون البصر فى محاولتهم الانتحار ، والمؤلف يقرر عدم معرفته لأى دراسات تمت فى هذا الموضوع ولكنه يتقدم باعتراف مؤداه أن العمى ربما يضطلع بإشباع كامل للجانب المازوشى من الحافز الانتحارى .

ومن ثم فن النادر أن يقوم الشخص بمحاولة ثانية للانتحار . ويقوم سؤال مؤداه : هل من الممكن أن تعود الحالة فى الظهور من جديد عند ما يضطلع التأهيل التام بالتقليل من عبء العمى ؟ ومن من العقوبة التى ينطوى عابها ؟

العمياء فى أمر أنوثتها) يمكن أن يتصرف على نحو يؤكد الشكوك ، وذلك بمحاولة « إثباته » رجولته عن طريق المسائل الجنسية أو إثبات « استقلالته » بزيمة متعجلة غير موفقة ، أو بمجموعة من هذا وذاك .

ومن الدلائل التى تكشف عن ضياع انتظام الشخصية عند الأعمى ، اتجاهاته من العميان الآخرين وعلاقاته معهم . فمن الممكن أن يختار صاحبه دائما أبدا من بين المعوقين ، أو من الممكن أن يحرص على إبعاد نفسه تماما عن كل العميان الآخرين ، بل ويشعر تجاههم بالغيرة أو بأية مشاعر تنطوى على عدم الثقة بهم . ويمكن أن نقول الكثير (على أن نكون متنبين ها هنا إلى عمليات التبرير والتعقيل) فيما يتصل باتجاه العميان من جمعيات العميان . عندها يمكن أن نتبين هل العميان يأملون فى أن يعيشوا التبعية ؟ أو هل هم يبحثون عن جمعيات تعينهم - على العكس - على الزيادة من استقلاليتهم . ومن الممكن أن نرى بين حين وآخر أمارات دالة على الحقن والكراهية ضد هذين النوعين من الجمعيات على السواء ، ونستطيع ابتداء من هذا الحقن والظروف المحيطة به أن نصل إلى الكثير عن اتجاه الأعمى وتكيفه مع عماه (وهنا ينبغى أن نتحرر من خط التبرير والتعقيل بأن ندافع عن جمعياتنا ناظرين إلى كل نقد يصدر عنهم على أنه مجرد تعبير عن عدوانيتهم وتبعيتهم لا صلة له بالحقيقة الخارجية) .

وآخر الضربات المروعة للعمى إنما هى هذه الضربة حيث تنال التجربة الصدمية المتعددة الجوانب من الانتظام الكلى للشخصية وتجميع الأجزاء المستندة لتركيبها من جديد بما يعد بمثابة إصلاح لآثار هذه الضربة ، فذلك هو أعظم التحديات التى تواجهها جمعيات العميان . ذلك أن الشخصية هنا هى التى عانت الموت .

الفصل الثامن

اعتبارات أخرى

١ - فقدان مصاحبة

وكما سبقت الإشارة إلى ذلك في المقدمة ، فإننا مهما نحاول تحليل فقدان العمى فإنها تتداخل وتشابك بعضها في بعض ، والآن بعد أن فرغنا من تحليلنا فمن الممكن لأى قارئ أن يرى فقدانات أخرى لم يشملها التحليل : وإذن يتحتم علينا ، ولو بإيجاز ، أن نعرض لثلاثة من هذه الفقدانات كثرت الإشارة إليها من جانب العميان حديثي العمى ، وبصورة من الاهتمام تستوجب منا بعضاً من الإيضاحات : فقدان القدرة على الحسم ، وفقدان النوم (أو فقدان النوم في ميعاده المناسب) ، وفقدان الحيوية البدنية (ونتيجة لذلك شعور مستمر بالتعب) .

إن الذين يتحدثون عن فقدان القدرة على الحسم يبدو أن لديهم وجهين لهذا الأمر ؛ حقيقة واقعة مؤداها أن كثيراً من القرارات التى كانوا من قبل يضطلعون باتخاذها في الحياة العائلية قد أصبحت لآخرين ، هذا إلى أنهم يجدون من العسير عليهم اتخاذ القرارات .

هذه الحالة يبدو أنها واسعة الانتشار بين العميان حديثي العمى ، أما عن الوجه الأول فقد عرضنا لأسبابه عند الحديث عن فقدان الصلاحية الاجتماعية ؛ فمن الممكن أن يجد فرد أو أكثر من أفراد أسرة الأعمى شعوراً بالمتاع في اضطلاع بالدور الجديد القيادى في العائلة ، هذا الفرد أو هذا نفر من الأفراد هم الذين يتخذون القرارات . وإذن فإن هذا الأمر هو إلى حد كبير فقدان لدور معين ، هو الدور القيادى ، ما يتحقق في سر في الأسر المشبعة بالتصورات النمطية الجامدة عن العمى . ويحتاج إلى التغلب على ذلك أكثر

ما يحتاج إلى نوع من العمل المباشر المتصل من طبيعة دراسة الحالات الفردية من الأسرة ، هذا إلى أننا ينبغي أن نعرف بأن أحد الأسباب التي تدفع الأسرة إلى الاضطلاع بهذا الدور ، إنما ينحصر في أن الأعمى نفسه يرغب على الأقل بشكل لاشعورى في التخلي عنه .

أما الوجه الثانى من هذا فقدان — ونعنى به ما يجده العميان من صعوبة في اتخاذ القرارات — فهو ليس بأى حال شيئاً خاصاً بالعمى . فعدم القدرة على اتخاذ القرارات هو عرض من الأعراض المرضية ، وكثيراً ما يكون عرضاً يترجم عن القلق أو عن فترة عصائية في حياة الشخص : وحيث إن العمى صدمة عديدة الجنبات تتواتر ، فإنه غالباً ما يحتم على الفرد أن يعيش فترة من الانفعالية المشوبة بالقلق .

وعند ما يضطلع الأعمى حديث العمى بإعادة الانتظام لحياته بحيث يعود إلى الرغبة من جديد في أن يضطلع بالقرارات التي كان يضطلع بها فيما مضى ، فمن الممكن أن تعترضه صعوبة شديدة ، وذلك عندما يكون الشخص الذى خلفه في الدور القيادى سعيداً بذلك ، راعباً عن التخلي عنه .

وهكذا فى الموقف الذى يحتاج فيه الأعمى إلى التشجيع الذى « يدعم من خطواته الأولى » فى طريق استئنافه لدوره القيادى فإنه يجد بدلاً من ذلك مقاومة تعترضه فى صورة صريحة أو محجبة . ومن الواضح أننا فى مثل هذه الحالة نحتاج إلى خبرة متخصصة من (دراسة الحالة الفردية) للأسرة .

أما فقدان الثانى الذى أشار إليه كثير من العميان فهو « فقدان النوم » ويقرر بعض العميان أنه « فقدان للنوم فى ميعاده الطبيعى » . والعامل الأساسى هنا هو فيما يبدو توتر انفعالى . فأى واحد خاض موعلاً فى صعوبات انفعالية أو تعامل مع أشخاص من « العصبيين » إنما يعرف الأشكال المختلفة التى تتخذها صعوبات النوم عندهم سيان فى صورة عدم القدرة على النوم أو فى صورة النوم الذى لا يحقق الراحة فى صبيحة الغد .

فتحت وطأة التوترات الانفعالية الشديدة للعمى الحادث ، يعاني كثيرون مضطرباً في عادات نومهم ، غالباً ما يكونون من التوتر بحيث يستحيل عليهم النوم عندما يهجعون إلى الفراش . وغالباً ما يكونون من الملل خلال الساعات العادية للصحو بحيث يغلب عليهم النعاس والوخم . أضف إلى ذلك الإرباك الشامل الذى أصاب برنامجه ، وبخاصة عندما يكون الشخص قبل العمى قد اعتاد العمل المنتظم بساعاته المحددة ، فيجد نفسه مع العمى تائهاً في فترات طويلة من الوقت لا يجد فيها ما يشغل نفسه به ، ومن السهل إذن أن نفهم كيف تتعرض عادات النوم عندهم لإرباك تام فيصبح النوم مشكلة وخصوصاً النوم في مياعده الطبيعى .

وقبل هذا كله ، وأهم من هذا كله بالنسبة إلى « الأعمى تام العمى » فقدانه للتمييز ما بين نور النهار والظلام . وليس هذا هو العامل الرئيسى فى مشكلة النوم ، وجعلها فى وقت غير أوقات النوم الليلية . ولكن بالنسبة إلى هذا النفر من العميان الذين يعجزون عن تمييز أوقات النهار تكون عدم القدرة عاملاً له وزنه .

وهذه المشكلة الخاصة ، مشكلة النوم ، يسهل حلها فى دورة تأهيل أحسن بإعداد برنامجها . فإذا ما كان الأعمى قد تحقق له بشكل مكتمل انتظامه الجديد (إعادة انتظام حياته) ، فليس هناك من سبب يمنع عادات نومه من أن تجد مكانها فى النظام الجديد .

أما فقدان الثالث ، فقدان الحيوية البدنية^(١) ، فشأنه شأن النوعين السابقين ، من حيث إنه عرض من الأعراض التى تترجم عن التوتر الذى يعانى به الأعمى حديث العمى .

(١) **Tonus** (حالة التوتر) والمصطلح فى معناه السيكولوجى الحديث يدل على التواء العادى أو الاستجابة العادية للمثير ليس هو ما يعنيه المؤلف ها هنا ، وإنما يبنى بالحرى المصطلح فى معناه الطبى . هذه الحالة للبدن أو أى عضو من أعضائه التى تكون فيها التوائف كما يبنى وتقسّم بالقوة اللازمة .

ويمكن تفسير هذه الظاهرة جزئياً في كثير من الحالات بإرجاعها إلى فقدان القدر العادى المألوف من تشغيل العضلات الذى كان الشخص معتاداً عليه . ولكن هذا السبب ليس هو الأساس فيما يبدو . وليس الأطباء العقليون وحدهم وإنما كل الأطباء بصفة عامة يعرفون أنه ما من سبب يزيد على التوتر الانفعالى في إحداثه حالة التعب العام أو فقدان الحيوية البدنية . فهذا فقدان الحيوية هو في الواقع واحد من أبرز الأغراض التى تترجم عن القلق . وعليه فالأعمى حديث العمى إذ ينوء تحت مختلف المشكلات الانفعالية المتصلة بتكيفه مع الإعاقة ، وإذ يعاني من الصدمة العديدة الأوجه والمتواترة ، هو في حتمية تقريباً تفرض عليه فقدان الحيوية البدنية .

وعند ما يمضى الأعمى في المراحل المتتالية للتأهيل ، يلاحقه التوتر ، وإن كان من طبيعة مختلفة ، إذ يصبح من المحتم عليه أن يكون دائماً أبداً في حالة يقظة ، واستعداد تجاه آلاف الميزات الجديدة التى تأتية من البيئة المحيطة به . يصدق هذا بصفة خاصة على مرحلة التعلم من مراحل التأهيل ، ففي خلال هذه الفترة يتحتم على كل مناشطة الحسية أن تبرز واضحة المعالم في مسرحه الشعورى ، وأن يضطلع بتأويلها وفهمها في وعى وشعور مكتمل ، ثم يضطلع بتنفيذها في وعى وشعور أيضاً . وعندما تصبح غالبية هذه المناشط — بالمرانة ومع الوقت — عادية ومألوفة ، فإن قدراً كبيراً من توتر الشعور اليقظ يتلاشى ، وإن كانت هناك دائماً درجة من التيقظ تزيد عند الأعمى عنها عند المبصر وخاصة في المواقف الجديدة .

ولكن فقدان الموقت والذى له دلالة الأعراض ، فقدان الحيوية البدنية ، ينبغى بصفة عامة أن يقتصر على هذه الفترة التى تسبق اكتمال التأهيل لعملية التأهيل ينبغى أن تتناول هذا الأمر من زاويتين . يتحتم عليها أن تتناول بشكل مباشر وبمخصص المشكلات الانفعالية للشخص لتخفف

من وطأة تعديها ، ويتحتم عليها أن تعمل على خفض درجة اليقظة اللازمة ، وذلك بجعل مناشطه الحية كلها عادات تنزل منزلة « الطبيعة الثانية » .

وليس من شك في أن ثمة فقدانات أخرى يعانيها الأشخاص الذين يفقدون بصرهم . ولكن مهما يكن من أمر فقد كشفت التجربة عن أن غالبية هذه الفقدانات يمكن فهمها في ضوء الفقدانات العشرين التي وجدناها شائعة بدرجة أو أخرى عند غالبية الناس ممن يفقدون بصرهم .

٢ - المزايا المزعومة الناتجة عن العمى

من بين الأشخاص الكثيرين الذين اضطلّعوا بدراسة تحليل الفقدانات الناجمة عن العمى والتي عرضنا لها في هذا الكتاب ، قام نفر يقترح ضرورة الحديث عن مكاسب العمى كما نتحدث عن فقدانات العمى . وإني لعلّي ثقة أن المزايا المزعومة هي ميزات عرضية ، وإنها ليست بحال عامة عند الجميع وإنها في الحالات التي تتحقق فيها لا يكون العمى سبباً لها ، وإنما مجرد فرصة مواتية أعانت على ظهورها . ولكن ما دام هناك أناس يفقدون من وجود بعض المكاسب والميزات فإنه يحسن تناولها بالدراسة .

فما يمكن تسميته « بالميزات المهنية » عند الأشخاص الذين فقدوا بصرهم إنما هو بالتأكيد ظاهرة شائعة . فبين الأشخاص الذين فقدوا بصرهم في الخدمة العسكرية يوجد كثيرون ممن أنهموا دراستهم في مستوى المرحلة الأولية ، ومن كان طموحهم المهني يدور في محيط الصناعات والحرف غير الماهرة أو نصف الماهرة . والذين استطاعوا بعد العمى تعديل طموحهم المهني فضوا في دراسات أعلى وعملوا في مجالات المهن المتخصصة أو المهن شبه المتخصصة وبين المدنيين أيضاً ، وفي الأسر التي يترك فيها كل الإخوة الحياة المدرسية في وقت باكر للاشتغال بعمل من الأعمال ،

غالباً ما يظل الأخ الأعشى ماضياً في دراسته إلى مراحل أعلى بالغاً إلى مستوى مهني رفيع في السلم المهني .

ومن الواضح أنه يمكن النظر إلى ذلك بحسبانه « ميزة » للعمى على الصعيد المهني ، وعلى أية حال فإنني — بالرجوع إلى خبرتي الخاصة — أجد في إعداد الذين تعرضوا لانحيار مستقبلهم المهني انحياراً تاماً ما قد يزيد على الحالات الأخرى ، وأحد الأسباب التي تدفع أسرة الأعشى إلى المضي في تعليمه إنما هو استحالة كثرة من فرص العمل في مستوى الأعمال الكادحة ماهرة أو غير ماهرة بالنسبة إلى الأعشى ، ولكن الأعشى المتعلم غالباً ما يصطدم بإحباطات جديدة في مستوى البنائات « الباقات » البيضاء حين يتبين أن فرص العمل أقل منها في المستوى الكادح .

وهناك ما يمكن تسميته « بالزاي الفكرية » . وليس من شك في أن العمى يتيح للكثيرين فرصة الإمعان في التفكير المجرد . فتحرر الأعشى وتجرده عن الأشياء العيانية البصرية ، والمشتقات العديدة البصرية ، إنما يتيح للبعض منهم ممارسة نوع من التفكير ما كان لهم في غير هذه الظروف أن يستشعروا الرغبة فيه أو القدرة عليه . ومن ناحية أخرى ، ينطوي العمى على فرص كثيرة من تشتيت الفكر ، فالمشكلات الانفعالية التي تثقل كاهل الأعشى يمكن أن تعزله عن كل فكر ، حابسة إياه في نطاق من التفكير الانطوائى الذي يسد الطريق أمام التفكير المجرد ، ولقد خبرت بنفسى عدداً كثيراً ممن لم تتحقق لهم أية مكاسب في هذا المجال ، كما رأيت عدداً كثيراً آخر ممن يميل إلى الكلام بأكثر مما يميل إلى الفكر ، ومن ثم لا أستطيع أن أنظر إلى هذا الكسب على أنه ميزة عامة .

وما يمكن تسميته « مكاسب صورة الذات » تستطيع أن تشاهده المرة تلو المرة : فأشخاص ممن كانت قيمة الذات عندهم في مستوى جد خفيض بالنظر إلى أشخاصهم ومكانتهم في المجتمع يبدو أنه قد تحققت لهم مكاسب في

شعورهم بمكانتهم الشخصية كنتيجة للعمى . ومن الواضح أن الاضطلاع — إن كثيراً أو قليلاً — بالدور البطولى للمجاهد الشهيد يدخل ضمن هذه الصورة . ومثل هذه الحالات ليست بالنادرة . فالشخص الذى لم يكن من قبل شيئاً على الإطلاق قد أصبح الآن كمجرد أعمى ، شخصاً مختلفاً عن الآخرين بارزاً على الأقل فى حيه . إن له مهارات معينة وقدرات حسية معينة لم يتح للآخرين فرصة تطويرها ، وكنتيجة لذلك يمكن أن يلقى فى طريقه قدراً من الإعجاب لم يألفه من قبل .

ومن الممكن أن يرتفع الأمر إلى حد الكسب والميزة عند البعض ، ولكن يصعب دائماً تبين مدى أهمية هذا الكسب ومدى تقبل الأعمى له ومدى إفادته منه كبديل لمواجهة الواقع . وعلى أية حال فمن المؤكد أن هذا الأمر لا يمثل ميزة عامة يمكن النظر إليها بحسبانها جانباً من الأسلوب النمطى الذى ينتج عن العمى .

وينبغى هنا أن نشير أيضاً إلى «مزايا الاستبصار» . ولكن هذا الاستبصار ينتج فى العادة عن التأهيل بأكثر مما ينتج عن العمى . فالأمر، إذ يبلغ إلى فهم استجاباته إزاء صدمة العمى بجنباتها العديدة ، يمكن أن يفتح أمامه الطريق إلى فهم أعمق لاستجاباته إزاء الأشياء الأخرى فى الحياة ، وفهم البنية الخاصة بشخصيته .

ومن الممكن أن يكون هذا عظيم الفائدة بالنسبة إليه فى علاقاته بالآخرين ، ومن حيث شعوره بالأمن الداخلى ، بل وقد يمكنه ذلك من أن يعين الآخرين على ذلك مما لم يكن ليستطيعه من قبل ، ولكن أية مكاسب أو أية مزايا هنا ، من الواضح أنها لا تنتج عن العمى فى ذاته ، وإنما من الاستبصارات التى تحققت له إبان عملية التأهيل .

وأحياناً ما يتحدث الناس عن نوع من الكسب يمكن تسميته (ميزة

« تبين الخير في العالم ») ؛ ففي رأيهم أن العمى يحمل البعض لأول مرة في حياته على أن يتبين مدى الخير الذي ينطوى عليه العالم ، وعلى أن يتبين مدى كثرة الناس الذين يرحبون بتقديم المساعدة ويتركون طريقهم أو ما هم فيه لمساعدة الآخرين .. إلى آخره . وليس من شك في أن كثيرين من الناس يعيشون بالفعل حياة متمركزة حول ذواتهم ، بحيث لا يكونون في العادة على وعى بالخير أو الفعال الخيرة للآخرين ، وفي أن بعضاً من هؤلاء الناس يعيش تجربة جديدة قوامها اليقظة عندما يجدون أنفسهم وحب الآخرين يجذبهم .

ولكن هذه الخبرة هي الأخرى ليست عامة ، فكثير من الناس من هم على وعى بوجود الخير والمساعدة ، وذلك قبل العمى ، وكثير من الناس كانوا على غير وعى بهما واستمرّوا بعد العمى على غير وعى بهما .

وبعض العميان ممن يكررون القول بأنهم الآن أصبحوا يقدرّون حقاً ما ينطوى عليه العالم من إحسان وفضل إنما يفعلون ذلك بدافع معين ، يشعرون بأنه يتحتم عليهم أن يرفعوا الصوت بمثل هذه المشاعر ، فإنهم إنما يشعرون في الواقع بمشاعر الإثم الناجمة عن الحقن الذي يملأ أعماقهم بعيداً عن كل شعور بالعرفان ، وعليه فمثل هذا الكسب أو الميزة حين يتحقق لا نستطيع أن ننظر إليه بحسبانه ميزة لصيقة ينطوى عليه العمى .

ويتحدث آخرون عما يمكن تسميته (كسب « الصداقة ») ، ولا يعدّ هذا متميزاً تمام التميز عن الكسب السابق ، وإنما هو أكثر خصوصية وتعييناً . فكثير من الأشخاص يوسعهم القول بأنه لو لم يكن العمى ، لما أتيح لهم أن يعرفوا هذا الصديق الممتاز أو ذلك الآخر ، وأكثر من هذا ما نجده في بعض الحالات من أن العمى إنما كان الفرصة التي أتاح للشخص أن يلتقي بشريك الحياة ، فكثير من عميان الحرب مثلاً ، قد التقوا بفتيات رائعات أصبحن

هنا بعد زواجهم ، ولولم يكن العمى قد حملهم إلى هذا المستشفى بعينه لما أتيت لحلم قط فرص اللقاء . وكذلك في الحياة المدنية فإن العمى كثيراً ما كان السبب الذي أتاح الفرصة للرجل الأعشى أن يلتقي بشريكة حياته ، أو للمرأة العمياء أن تلتقي بشريك حياتها .

وليس هناك من ينكر أن تحقيق زيجة سعيدة أو صداقة موفقة ، إنما هو كسب . ولكن هناك أيضاً حالات كثيرة تسبب فيها العمى والصعوبات الناجمة عنه في فرض جو من التوتر الشديد على العلاقات الزوجية القائمة ، حيث أدى ذلك أحياناً إلى صدع العلاقة ، كما تسبب في حالات أخرى كثيرة في الإحاطة بصداقات ممتازة . وإذن فإنه يصعب هنا أن نتحدث عن أسلوب حياة يترجم عن نوع من الكسب العام .

ويتحدث بعض الناس عن كسب قوامه عدم إدراك ما تنطوى عليه الحياة من قبح . ولكن أهذا الكسب هو كسب حقيقي ؟ أليس الأمر كما يقال في العادة مجرد هروب من الحقيقة ؟ لو أن العمى كواقع أدى بالشخص إلى أن يتبين على نحو أفضل « مدى ما هناك من خير حتى عند أسوأ الناس » ، فذلك إنما يكون أمراً له أهميته في تعميم القيم :

وعلى أية حال فكثيراً ما يقال هذه العبارة للدلالة على ما يستشعره الشخص من مشاعر الرضا ، إذ يتوقف عن إدراك الشر بكائن ، سيان في صورته الفيزيائية أو المعنوية . ومع ذلك فإن العالم على نحو ما هو عليه يشتمل بالفعل على ما هو شر وما هو قبيح ، بصورته الفيزيائية والمعنوية . وكون الشخص عاجزاً عن أن يدرك القبح الفيزيائي لا يعنى على الإطلاق أن من حقه أن يلغى حواسه الأخرى ، وأن يغلق عقله دون الحقيقة ، وأن يهرب إلى عالم من الأحلام ليس له من وجود . فساد العالم يوجد على نحو ما هو عليه فمن الخير أن نعيش فيه على النحو الذي هو عليه .

مضطلعين ولا شك بما نستطيعه من أجل تحسينه . ولكننا لا ينبغي أن نخفي الحقيقة عن أنفسنا أو عن أى شخص آخر ، أو أن نحاول اصطناع عالم من خيالنا .

وهكذا ، فهذا « الكسب » هو في واقع الأمر ليس كسباً على الإطلاق . هذا إلى أنه جد خطير بسبب ما يمكن أن يحدثه من خسائر في نفسية الشخص ، وبسبب ما يمكن أن يوحى به من إمكانية الهروب من المسؤولية .

وهناك أيضاً كسب آخر قوامه « اكتشاف القوة المجهولة » . فإني أعتقد أن بعض الأشخاص يعيشون بالفعل بهذا الكسب في نهاية مرحلة التأهيل . وهذا الأمر لا يختلف كثيراً عما يشعر به عدد كبير من الأفراد أثناء المعركة في زمن الحرب . وقد كانوا خلال حياتهم الراشدة كلها يخافون من احتمال انهيارهم إذا ما واجهتهم صعوبات شديدة . ولكنهم إذ يعيشون هذه المصاعب ويكتشفون قدرتهم على الصمود ، يستشعرون لأول مرة الثقة الحقيقية بأنفسهم . ولكن هذا لا يتحقق عند جميع الأشخاص الذين يكونون في حاجة إلى قوة جديدة ، كما أنه ليس من الضروري بالنسبة لكل الناس أن يعيشوا كارثة كي يتبينوا ما تنطوى عليه شخصياتهم من قوة . ولكن في الحالات التي يتحقق فيها هذا الاكتشاف فمن الممكن اعتباره نوعاً من الكسب . وإن كان ينتج من استعادة السيطرة بعد ضربة العمى بأكثر مما ينتج من الضربة نفسها .

وأخيراً فتمهيد كسب ممكن ، قوامه « توجيه من جديد للقيم الدنيوية والقيم الخالدة » . وبعض الأشخاص ممن يفقدون أبصارهم يحققون كسباً ، إذ يتبينون الأهداف الدنيوية وحدها والتي كانت الدعامة الوحيدة لحياتهم . ليست لها في الحقيقة كل هذه القيمة التي أضفوها عليها . ومن ثم يتبينون لأول مرة ، ما يشبه الحاجة إلى العمل من أجل القيم الخالدة .

ذلك كسب ولا شك إذا تحقق ، ولكن هذه النظرة الجديدة للقيم لا تتحقق لكل من يفقد بصره - كما أن كثيراً ممن يفقدون أبصارهم كانوا من قبل على علم بهذه الحقيقة . فإن كان هذا كسباً بالنسبة إلى البعض ، فليست له مع ذلك العمومية التي تجعلنا ننظر إليه على أنه أسلوب نمط يترجم عن كسب ناجم عن فقدان البصر .

ليس هناك من يرغب في إنكار الغلالة الفضية التي تراءى من وراء السحب الداكنة ، ولكن ليس من السوية أن يأخذ الإنسان في التطلع إلى هذه الغلالة الفضية بدلاً من أن يخف إلى معطف المطر : إن العمى تجربة قاسية مدمرة ، بل كارثة . والاتجاهات الملتوية يمكن أن تعين الشخص على إنكاره ، ولكنها لن تعينه على قهره .

وهناك بعض من الناس يقتدرون على الإفادة من أشد المواقف عسراً - حتى العمى - في تطوير أنفسهم إلى ما هو أحسن . ولكن بالنسبة إلى الغالبية العظمى من الناس لا ينطوى العمى بذاته على شيء يمكن أن يكون كسباً . فالعمى بالنسبة للغالبية لا يمكن أن يكون عاملاً مواتياً وإنما جملة من الفقدانات الخطيرة .

٣ - وسائل متفارقة في العمل مع العميان

في الجزء الأول من هذا الكتاب ، كنا نحاول تحليل إعاقة العمى . وفي تشبث دائم بالموضوعية حاولنا تبين دلالة العمى وما يحدثه العمى في الكائنات البشرية .

والآن وقبل أن تنتقل إلى تناول ما ينبغي عمله للعمى فلا بد للقارئ من أن يعرف أنه في الماضي كما هو في الحاضر كانت هناك مجموعتان من المبادئ جد مختلفتين تهيمتان في مجال العمى من أجل العميان . ولم تكن هذه المبادئ بصورة دائمة محددة بوضوح ، وأحياناً ما كانت

تعمل كلتاها معاً وفي نفس الوقت في الجمعية الواحدة ، بل وفي الإخصائي الواحد الذي يعمل مع العميان .

وكائناً ما كانت التجسيديات اللفظية (التي ابتذلت من فرط التكرار) فإن المجال كله يتنازعه إلى حد التمزيق ، أمل قوامه أن الأعمى يمكن أن يزاول بشكل سوى أى نشاط ويأس قوامه أنه ما من شيء يمكن أن يحقق ذلك .

ومع ذلك فإن هذا الصراع يعمل فيما تحت السطح ، فلا يدركه حتى أصحابه الذي يعمل داخلهم . أناس مخلصون يقولون إن العميان « أسوياء تماماً » وإلى غير ذلك ، وفي الوقت نفسه ينفذون برامج تتناول العميان باعتبارهم تابعين مدى الحياة وينحون بالعميان إلى التبعية .

وليس معنى هذا أن هذا الاتجاه أو ذاك لا يصلح دعامة للعمل . فإني أعتقد أنه من الممكن بالنسبة إلى البعض أن يعمل استناداً إلى أن التكيف مع العمى مستحيل ، وبالنسبة إلى بعض آخر أن يعمل استناداً إلى أن التكيف ممكن^(١) ، ولكنه من الأهمية إلى أبعد حد بالنسبة إلى حقل العمل مع العميان أن يبلغ كل عامل في ذلك الحقل إلى تبين صريح لما يعتقد ، وإلى أن يصدر في عمله عن ذلك في صراحة - بمعنى أنه يتحتم عليه أن يكون أميناً مع نفسه ، أميناً مع العالم .

فلو أن تحليلنا للعمى في الفصول السابقة قد أصاب التوفيق ، أو قارب ذلك ، فسيكون من الواضح أن ثمة نتيجة على الأقل يتحتم الاتفاق عليها - العمى في الواقع إعاقة شديدة الوطأة . إنه في آثاره العديدة يبعث على الرعب . ومن الناحية العملية يلحق أثره بكل المناشط الخارجية العادية ، ويوغل في أثره إلى أعماق أعماق الشخصية . إنه مدمر يكاد يكون كارثة .

(١) من الواضح أنه إذا لم يكن العاملون في خدمة العميان يتطابقون مع الجماعات التي تقلزم بنفس الفلسفة فإن الجماعات نفسها تكون ، إن جاز التعبير ، مصابة « بالقصام » .

هنا ما اتفقنا جميعاً على هذا القدر ، لكان على الاختلاف أن يبدأ بعد هذه النقطة .

فبعد ما يفرغ الإنسان من تحليل العمى فإنه من الممكن أن يتأدى إلى القول بأنه مأساة من العمق بحيث يستحيل قهره بأنه يصدع جوانب الشخصية بحيث يستحيل الإصلاح ، وبأن فقداناته من التعدد والقسوة بحيث يكون من العبث أن نحاول تأهيلاً حقيقياً ، وبأنه يجعل صاحبه مغايراً للمبصرين العاديين بحيث تصبح عبثاً كل محاولة لاسترجاعه مكانته في عالم المبصرين .

وعلى كل شخص يعنيه العمل مع العميان : أن يتفحص هذه العبارة في عمق . ذلك أنه إذا كانت هذه العبارة صادقة ، فإن الجمعيات التي تتخذ اتجاهها أوبياً قوامه الوصاية لإزاء العميان تكون على حق تماماً ، على حين تكون الجمعيات التي تأخذ عليها « وصايتها الأبوية » هذه ، مخطئة وتتناقض مع العميان بضرر بالغ .

وإذا كانت العبارة صحيحة ، فإن انتحاء العميان ، بمعنى انغزالهم عن الكل ، إنما يكون نتيجة منطقية محتومة .

حفلات ، ونزهات وسهرات راقصة للعميان ، وولائم للعميان ، ترفيه للعميان — كل ذلك يتنازع ، ويكون له عندئذ ما يبرره .

خصائص انغزالية في ظروف العمل وورش الحماية التي تستمتع بامتيازات خاصة لا تكون للمبصرين ، وجو عام يهيمن عليه العطف مما لا يوجد في ظروف العمل العادية — كل ذلك يبدو عندئذ ببساطة مجرد نتاج للدماثة البشرية .

وبيوت للعميان — حيث يجلبون من الرعاية ما لا يجده الناس عادة في ظروف الحياة — تبدو هي الأخرى مسألة طبيعية . وفي هذه البيوت

تحضر بالضرورة القلوب العاطفة وتضطلع بالترفيه ، والنفوس الطيبة التى يشوقها التفانى للتخفيف من الحظ العاثر للعميان .

وإذا كانت العبارة صحيحة ، فلن نجد غضاضة فى هذه التشريعات لطائفة العميان ، نمنحهم مجانية الركوب فى السيارات العامة مثلا ، ورخصا مجانية للصيد ، وحقوقا مجانية للبيع المتجول وعلى الأرصفة .

وإذا كانت العبارة صحيحة ، فإنه يتحتم على جمعيات العميان أن تعالج جميع مشكلات العميان ، سيان كانت هذه المشكلات متصلة بالعمى أو غير متصلة به . يتحتم على هذه الجمعيات أن تعالج جميع مشكلاتهم لأنها مشكلات عميان ، ولأنه من الإسراف أن نتوقع منهم أن يضطلعوا بحل مشكلاتهم ، أو أن تتصور أن الجمعيات العادية تستطيع أن تعالج هذه المشكلات بالوعى والعطف اللازمين .

وإذا كان العميان لا يملكون القدرة على ممارسة دورهم كمواطنين اكتمل بلوغهم ، فليس لأحد أن يأخذ على هذه الجمعيات تدليلها للعميان أو تملقها إياهم ، وأن تنالهم بين حين وحين بعقوبة طفيفة ، وأن تعاملهم بشكل عام على أنهم معالون ، عيال « أطفال » .

وإذا ما حملتهم الحقائق الناعمة على شئ من التوقف ، فلن يجروء على نقد هؤلاء المساكين إلا قلب غليظ .

وإذا كانت هذه العبارة التى قوامها اليأس من محاولة تأهيل العميان صحيحة ، فإن ما نحتاج إليه حقاً ليس بتناول متخصص لمجال العمل مع العميان ، وإنما انتقاء موفق للعطوفين الذين يقدمون إليهم المعونة ، ويتفهمون مشكلاتهم وكأنها مشكلاتهم الخاصة .

وإذا كان العميان عاجزين عن أن يكونوا راشدين مسئولين ، فإننا نفهم كيف أن هذه السلوكية التى يتناولها النقد ، ونفس هذه السلوكية

من جانب أشخاص يفترض فيهم الميل المسرف إلى « رعاية العميان » ، ليست غير نوع من الوصاية الحازمة العطوفة تستوجبها الظروف .

وباختصار : فإنك إذا اعتقدت في صحة هذه العبارة ، فعنى ذلك أنك لا تتوقع أية سعادة حقيقية للأعمى في هذه الحياة ، وأنتك تتصرف بحتمية من المنافسة مع عالم المبصرين ، ولتسند به بكل وسيلة ممكنة ، ومن ثم تجعله ضمن ظروفه القائمة « سعيداً » قدر الإمكان .

وإني - بالاستناد إلى الخبرة - مقتنع أعظم الاقتناع بأن هذه العبارة خاطئة تماماً وعلى وجه الإطلاق : واستناداً إلى ذلك فإنني أنقد ما يترتب عليها منطقياً من نتائج :

إني أوافق على أن العمى إنما هو إعاقة مدمرة ، تترتب عليه نتائج عديدة معقدة : ولست أعتقد أنني أغفلت بعضها أو قللت من شأنها : ولكنني أعتقد أن الطريق الأخرى هي التي ينبغي أن نمضي فيها - طريق تكريس أنفسنا لإعادة الأعمى إلى المجتمع الذي خرج منه .

إنه هو هذا الطريق الذي سلكناه في القسم الثاني من هذا الكتاب . عند ما نصل بالعرض إلى : « ماذا نفعل حياله ؟ »